

من تغريب إلى تغريب

التحول المذهبي من الضد إلى الضد فى مواقف المثقفين تجاه الإسلام، يشكل ظاهرة ملفتة للأنظار، حتى أن سيدة هندية مسلمة ألقت كتاباً كاملاً عنها. وقائمة "المتحولين" طويلة، وعليها أسماء كبيرة ولا معة. بعضها معروف لعامة المثقفين. وبعضها لا يُعرف إلا للخاصة. ومن أشهر المتحولين من العلمانية إلى الإسلام من الأوربيين: محمد أسد (ليوبولد فايس سابقاً)، ومريم جميلة (مارجريت ماركس سابقاً) والدكتور سراج الدين (مارتن كنجز سابقاً)، وناصر الدين دينيه، ومحمد مارمادوك بكشل، ورجاء جارودي؛ وهؤلاء أصبحوا مفكرين إسلاميين مرموقين بما كتبوا وألقوا عن الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقاً؛ وفى مصر على وجه الخصوص شهد الناس تحول الشهيد سيد قطب، والشيخ خالد محمد خالد، والدكتور مصطفى محمود، وأخيراً الأستاذ عادل حسين. وهناك مئات من الأسماء اللامعة فى مجال الفكر، والعلم، والأدب والفن، انضمت إلى القافلة منذ نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن.

وقد توقع بعض المشتغلين بالفلسفة فى مصر أن ينتهى التطور العقلى للدكتور زكى نجيب محمود إلى التحول الكامل إلى الإسلام، حين أعلن هو نفسه، حوالى سنة ١٩٦٣، أنه قد بدأ: "يزدرد تراث آباءه ازدراد العجلان" بعد أن كان يؤمن بأن الفكر الغربى الأوروبى: "فى شكل ثقافة واحدة" يندمج فيها المنقول والأصيل فى نظرة واحدة^(١). ومنذ ذلك الإعلان ومقالاته وكتبه - بصفة عامة - تدور حول هذه القضية، وتحاول إنجاز هذا الهدف. وقال ذات مرة إنه: "ليأسف على فترة لم تكن قصيرة من حياته الواعية (من الثلاثينيات إلى الستينيات) قضاها نصيراً لتلك الفئة (من أنصار التغريب الكامل) على ظن خاطئ منه بأن "ما نجح" فى الغرب كل هذا النجاح، الذى أضفى عليه ما أضفى من قوة وعلم وثناء، ينجح معنا إذا نحن اصطنعناه. لكنه خطأ فى الرأى قد شاء الله لهذا الكاتب أن يراه فيهدى"^(١).

(١) تجديد الفكر العربى : التقديم .

هذا هو ما حفزنى على إجراء هذه المحاولة للتعرف على المدى الذى قطعه الأستاذ على طريق تحول من الخطأ - أى التغريب الكلى - إلى "التوفيق" الذى حدده هدفاً لجهاده الأدبى منذ ربع قرن أو يزيد .

ومن المؤسف حقاً أن أقول أنني وجدت أن الأستاذ قد تحول من تغريب إلى تغريب! فقد كان يعمل للتغريب الكلى حتى عام ١٩٦٣؛ ثم اصطدم بالأساتذة والطلاب فى جامعة الكويت وتنسم هناك مناخاً آخر غير المناخ العلمانى اللادينى الذى كان سائداً فى قسم الفلسفة بجامعة القاهرة . وفى السطور التالية نحاول شرح هذه الحقيقة المؤسفة، استناداً إلى ما جاء فى مقالته عن "جمود الفكر ما معناه" (الأهرام يوم ١٩٨٩/٢/٧) على وجه الخصوص .

إن الدكتور زكى حاول أن يعرض لنا رأيه فى "النصوص الدينية" فى ذلك المقال، على شكل إشارات من على بعد . وصفوة القول عنده إن جمود الفكر معناه الوقوف عند "حروف" النصوص، أو عند مضامينها الجزئية . وتنشيط الفكر وفكه من عقاله . . . تبعاً لذلك - يستدعى تجاوز حروف النصوص إلى "روحها" أو التمسك بإطارها النظرى مع نبذ مضموناتها الجزئية .

وأول ما نأخذه على كلام الدكتور هنا هو "الإجمال" الذى يغفل التصنيف العلمى للنصوص، والتمييز بينها . وذلك خطأ منهجى فادح . فالنصوص القرآنية والحديثية أصناف؛ فمنها القطعى فى ثبوته ودلالته، كقوله تعالى: ﴿لِلذِّكْرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ ويتحتم الوقوف عند حروفه، وتطبيقه على كل حالة دون تغيير أو تبديل، ودون تاويل أو تفسير، ومنها القطعى فى ثبوته، الظنى فى دلالته، ويحتمل شيئاً من التاويل والتفسير، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَطْلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾؛ ومنها الظنى فى ثبوته ودلالته، كبعض أفراد الحديث الشريف، "الضعيف" حسب تعريف المحدثين، ويمكن تجاوز نصوصها كلية بشروط خاصة حددها العلماء .

وأبعد من هذا فإن المنهج العلمى يحتم إجراء البحث على "أفراد" النصوص نصاً نصاً، لا صنفاً صنفاً، وكان على الدكتور زكى أن يسوق لقراءته نصوصاً معينة ويبين لهم الفرق بين روحها وحروفها، أو بين مضمونها وإطارها النظرى، وأيهما الأهم

والمهم، وكيف يستطيع فك جمود الفكر، وتنشيطه، وما ثمن ذلك، وكان عليه أن يحدد أسماء المفسرين أو الفقهاء الذين وقفوا عند الحروف أو المضامين الجزئية، ويكشف عن الخطأ في موقفهم.

ولقد أكد الأستاذ بنفسه وعلى الدوام أنه لا يزال حيث كان: على رأس كتاب التغريب، حين انفجر غاضباً على المرأة المسلمة التي تحترم نصوص الكتاب العزيز، وتحاول أن توفق بين طاعة ربها وبين الأخذ بنصيبتها في العلم والعمل. حمل الأستاذ على الحجاب والاحتشام حملته الشعواء، ومجدد السفور، وأعلى من قدر المتبرجات، شبه العاريات، على شواطئ الإسكندرية، واستبدت به الثورة حتى نَسَبَ الحجاب الشرعي إلى شياطين الظلام، وهو يعلم أنه التطبيق العملي لآيات من كتاب الله، وأحاديث صحيحة لرسوله ﷺ (الأهرام-٤/٩/١٩٨٤) فكانت كلماته في المسألة أشد نكارة من كل ما قال من قبل!

فهل "روح" النص تعنى المعصية؟ وهل إبطاره النظرى يعنى رده والتنكر له كما فعل هو؟!

ولقد أكد موقفه هذا قبل ذلك (فى ٥/١٢/١٩٨٣) حين أنكر على الأمة العربية محاولاتها اقتباس العلم والصناعة من أوروبا دون الثقافة الغربية المادية العلمانية اللادينية. وقال: "وليس من شك فى أن مصر حين اصطدمت بحضارة الغرب الحديث وبشئ من ثقافته، اهتز بنيانها، لأنها وجدت نفسها أمام حياة تختلف عن حياتها اختلافاً شديداً، وكان أن ردت الفعل بموقف شاذ، هو الموقف الذى نحياه اليوم، وأعنى به أنها أخذت من الشجرة الجديدة ثمارها ورفضت جذورها وجذوعها (يقصد: المادية والعلمانية)، أى أنها أخذت نتائج العلم ونتائج الصناعة ونتائج النشاط الفلسفى والفكرى ومبدعات الأدب والفن والأشكال الخارجية للنظم كلها: سياسية وتعليمية واقتصادية وغيرها، أقول إنها أخذت "نتائج" هذا كله، ولكنها رفضت أن تحيا الحياة التى تعتمل فيها العوامل لتنتج لصاحبها تلك النتائج.

فهو ينقم على الأمة العربية أنها أخذت نتاج العلم والصناعة وأبت أن تحيا حياة غربية كاملة: أخذت ثمار المادية العلمانية ورفضت أن تأخذهما. هذه هى غلطتنا نحن العرب والصواب عند الأستاذ أن نأخذ الجذور والجذوع كما أخذنا النتائج.

وكان الدكتور طه حسين قد ذهب هذا المذهب في كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر" ودعا إلى أن: "نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقتهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة بخيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحِبُّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب".^(١) لكن الدكتور طه استدرك الخطأ في هذا الرأي، وقال في الكتاب نفسه: "إننا إذا دعونا إلى الاتصال بالحياة الأوربية ومجاراة الأوربيين في سيرتهم التي انتهت بهم إلى الرقى والتفوق، فنحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم وأنفع ما في سيرتهم... لا ندعو إلى أن نكون صورا طبق الأصل للأوربيين كما يقال، فذلك شيء لا سبيل إليه، ولا يدعو إليه عاقل".^(٢) أما كلام الدكتور زكى فيريدنا أن "نحيا الحياة الغربية" - وهي حياة علمانية لادينية؛ وهذا هو التغريب الكلى!

وأساس التغريب عند الدكتور زكى هو: الفلسفة النسبية، ونظرته إلى الثقافة ككل. فالثقافة عنده "أدوات عيش" لا فرق في ذلك بين الفأس والمغزل والعقيدة والشريعة!! وكل عناصر الثقافة يمكن أن تتغير ويحل محلها غيرها إذا ثبت أنها لا تؤدي إلى ما يراد لها من خدمة في "العيش"! وليس ثمة عنصر ثقافى مقدس عنده؛ فكل شيء قابل للتعديل والتغيير! وهذه هي الفلسفة النسبية المعادية لكل الثوابت، والتي تصادم "النصوص" الثابتة ويسعى فلاسفتها إلى تخطيها وهجرها، لكي يتمكنوا من أن يحيوا حياة أوربية كاملة، بجذورها وجذوعها وفروعها وأوراقها وثمارها جميعاً. فلا تغريب إذن بدون النسبية.

استمع إليه يقول: "إن مجمل الحياة الثقافية و بالمعنى الذى حددناه، إنما هو أداة عيش؛ وهو كاية أداة أخرى، إذا لم تؤد ما كان يراد لها أن تؤديه، وجب إصلاحها أو تغييرها بأداة أصح منها. وحتى "الثوابت" من العناصر الثقافية التى تدوم أكثر مما تدوم المتغيرات من تلك العناصر عصباً بعد عصر - وأعنى الثوابت التى منها تتألف "الهوية" الوطنية أو القومية. أقول إنه حتى تلك "الثوابت" من عناصر الحياة الثقافية لشعب معين، لا ينبغى أن يكون لها من القداسة ما يمنعنا من تعديلها إذا وجد أنها

(١) مستقبل الثقافة فى مصر؛ ص ٤٨ .

(٢) نفسه؛ ص ٦٣ .

قد فقدت شيئاً من قدرتها على أن تهين لصاحبها فرصة الحفاظ على حياته قوية مزدهرة" (الأهرام ٢٧/١٢/١٩٨٨).

فكل شيء متغير قابل للتعديل والإبدال والإحلال ولا شيء مقدس ولا شيء ثابت مطلق. كل ما في الأمر أن التغيير نسبي، يسرع في أشياء ويبطئ في أخرى. والحفاظ على الحياة القوية مزدهرة هو الهدف الأقصى لكل عناصر الثقافة؛ وكل ما يثبت أنه يقربنا من ذلك الهدف أكثر من غيره، يجب أن نأخذه وأن نستبدله بما هو أقل منه قدرة على إبلاغنا ذلك الهدف الأقصى.

والنصوص بحروفها، هي العدو اللدود لهذه الفلسفة النسبية السوفسطائية، إنها هي التي تقدم الثوابت والمطلقات الخالدة في الفكر والتشريع والأخلاق والنظم. ومن هنا كثر الحديث حول "روحها" و"حروفها" بغية الالتفاف حولها بالتدريج، لكي يطاح بها في نهاية المطاف!

والنسبية الجذرية الشاملة، التي يؤمن بها الدكتور زكي ويروج لها عبر مقالاته في الأهرام وفي كتبه، تقوم على أساس من الخلط بين "الحقيقة" و"معرفة الإنسان بها". وهذا خطأ. "فالحقيقة" ثابتة مطلقة لا تتغير. لكن "معرفة" الإنسان تتغير وتتطور. والقول نفسه يصدق على العقائد الدينية والقيم التشريعية والأخلاقية. فالتوحيد، والعدل، والإيثار، كقانون الجاذبية وحقائق الهندسة، كلها ثابت مطلق خالد. سواء عرفها البشر أو جهلوا، وسواء التزموا بها أو انتهكوا.

وهذه الثوابت في العقيدة والشريعة والأخلاق، وكذلك النصوص القطعية التي تنطوي عليها، لا تتصل بجمود الفكر من بعيد أو قريب، وإنما هي العواصم من عواصف الهوى والشهوات والرغبات الإنسانية، والدليل على ذلك أن أوروبا حين تفلتت من ثوابت الدين استحلت الاستعمار ونهب الشعوب المستضعفة، واستباحت دماء البشر في إفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية، بل في أوروبا نفسها، فقتل ٦٠ مليون إنسان في الحرب العالمية الثانية؛ وقد انتهت الفلسفات النسبية واللاذينية إلى تركيع العالم كله لدولة واحدة ظالمة هي أمريكا، وانتهكت كل القيم حتى تزوج الرجل الرجل. وصار الشذوذ هو القاعدة والزواج هو الشذوذ، وصارت غالبية النشء لا يعرف أحد منها أباه أو أمه، وحرمت الملايين من الأطفال غير الشرعيين من حق الحضانة

الاسرية، والأمومة والابوة؛ وترتب على ذلك تضاعف أعداد الجانحين والمجرمين، والمختلين عقلياً ونفسياً. وصرخ الجميع من "الإيدز" والسيلان والزهرى، وصارت معاقرة الخمر كابوساً رهيباً يفتك بأكباد الملايين؛ هذا فضلاً عن ظواهر الاغتراب والانتحار المفزعة!

فالثوابت والمطلقات فى الإسلام لا تعوق الفكر ولكنها تعصمه من التخبط والزلل والخضوع للأهواء والشهوات. ونحن نتمنى أن يفتح العلمانيون ملفات الجمود الفكرى من خلال أمثلة محددة يظن أنها تسبب الجمود. إنهم بذلك يخدمون قضايا الفكر الإسلامى والعربى. أما "التهويم" والرمز، والإغراق فى الإجمال، والخوف من التحديد، وتحاشى الأمثلة المعينة، فإنه لا يفيد فى شىء سوى إصابة الفكر بالغموض، والعقم تبعاً لذلك.

وصفوة القول، بعد هذه المحاولة، إن الدكتور زكى لم يغير هدفه البعيد، ولا هو تحول عن فلسفته القديمة، إنه بدأ بالعمل فى سبيل التغريب، ولا يزال يعمل فى هذه السبيل نفسها. كل ما فى الأمر أنه ترك التغريب الكلى، مؤقتاً، لكى يجاهد فى سبيل التغريب الجزئى، تحت شعار "التوفيق". ومن وجهة النظر الإسلامية الموقف الأول أهون خطراً من الثانى، لأنه واضح، صريح فى حين أن الثانى غامض، ملتبس، خفى، ويرفع المصحف فى وجه المسلمين، ويغمد العلمانية اللادينية المسمومة فى قلوبهم!

* * *

عبد الرحمن بدوى من الوجودية إلى الإسلام حدث ثقافي كبير

إن التحول الذى طرأ على فكر الدكتور عبد الرحمن بدوى حدث ثقافى كبير، وكما أنه أسعد قلوب المؤمنين فإنه أثار حفيظة العلمانيين الذين حاولوا تفسير تحوله بتوجيه الاتهامات إلى ضميره مستخدمين لغة سوقية أقرب ما تكون إلى السباب!

ولقد وصف أحدهم مؤلفات بدوى الإسلامية بأنها ردة - ردة من العلمانية إلى الإسلام، أو من التنوير إلى الظلامية، أو من الحداثة وما بعد الحداثة إلى الماضوية! وقال أستاذ معروف من أساتذة الفلسفة فى الجامعات المصرية: "إن بدوى كتب إسلامياته الأخيرة طمعاً فى أموال الدول النفطية التى تغدق العطاء على مثل تلك المؤلفات" وقال آخر إن بدوى تقدمت به السن فخاف من اللقاء الأخير - بمعنى لقاء الله - فكتب دفاعه عن القرآن وعن نبى الإسلام تحت وطأة ذلك الخوف!

بهذا الأسلوب المبتذل فسر العلمانيون الكبار ذلك التحول الكبير فى فكر رائد مرموق من رواد الدراسات الفلسفية فى العالم العربى والإسلامى، فاستدعى الأمر وقفة مراجعة وتمحيص تعيد الحق إلى نصابه.

إن الدكتور عبد الرحمن بدوى ليس من ذلك الطراز الذى يغيره ذهب المعز أو يخيفه سيفه، ولم يكن بدوى فى أى يوم من الأيام بحاجة إلى المال، إذ ينتسب إلى أسرة واسعة الثراء، وحتى لو كان بدوى من أسرة معدمة، كبعض نقاده، لما ساوم النظم التى حكمت مصر على حرية فكره، كما فعلوا هم. لم يكن بدوى من ذلك الطراز الذى يكتب للحكام، ويتحول ويتبدل حيث تحولوا وتبدلوا، من الليبرالية إلى الاشتراكية، أو الشيوعية، ومن الوطنية إلى القومية، وبالعكس؛ الأغلبية الساحقة كانت تتحول وتتبدل كالحرباء، وبدوى مقيم على الدرس والبحث، ثابت على مذهبه

الوجودى، العلمانى، عامل من أجل نصرته، رافض رفضاً باتاً للفكر السائد، لا يساوم ولا يرتزق .

ثم تحول بدوى إلى الإسلام بعد غربة امتدت إلى ربع قرن فى فرنسا، ولا أظن انه كان تحولاً مبالغتاً، وبواعثه علمية بحتة، فقد قضى مرحلة التضج فى فرنسا، حيث الحرية الفكرية متاحة على أوسع نطاق، ولا يوجد باعث ضاغط سوى حب الحقيقة ورفض الخطأ والزيف، ولم يتردد بدوى فى التعبير عن الحقيقة التى آمن بها من خلال مؤلفاته الأخيرة التى دافع فيها عن القرآن وعن النبى الذى جاء به، فى مواجهة كبار المستشرقين الذين تورطوا فى التحامل على محمد ﷺ وعلى دينه تحت وطأة التعصب الأعمى الموروث، والجهل باللغة العربية والإسلام.

وكان بدوى شجاعاً بحق، فليس بوسع مفكر جبان أن يتحول من الكفر إلى الإيمان، ومن المعسكر القوى السائد، والحاكم، فى الجامعات ومراكز البحث، والإعلام والثقافة، إلى المعسكر الضعيف، المتهم بالتخلف والرجعية والماضوية والظلامية والأصولية والإرهاب! ولولا شجاعة بدوى لتردد كثيراً، وتلعثم، ووقف على الحدود، يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، خشية العواقب، كما فعل بعض رواد الفلسفة الوضعية، مثلاً، فالكتاب الأول فى السلسلة الإسلامية الأخيرة عنوانه: "دفاع عن القرآن ضد منتقديه"، صدر سنة ١٩٨٦ . وهو حملة علمية هائلة على كبار المستشرقين، وهو ينزع عنهم الهالة العلمية التى أحاطت بهم؛ ويُسقط صورتهم كمثل عليا للبحث الموضوعى الرصين. والكتاب الثانى عنوانه: "دفاع عن سيرة النبى محمد ضد المنتقسين منها"، صدر سنة ١٩٩٠، وأنا لم أطلع عليه بعد، ولكن بدوى صرح بأنه يسير فيه سيرته فى الكتاب الأول. والكتاب الثالث عنوانه "الإسلام كما فهمه فولتير وهيردر وجيبون وهيغل". وهو الحلقة الثالثة فى هذه السلسلة الإسلامية.

الثورة الروحية:

فى أول كتاب ألفه بدوى سنة ١٩٣٩ عن "نيتشه"، ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من عمره، وضع لنفسه غاية كبرى سماها ثورة روحية، فقال: "فليس من شك فى أن هذا الوطن فى أشد الحاجة إلى الثورة الروحية على ما ألف من قيم... فى أشد الحاجة إلى أن يطرح هذه النظرة القديمة فى الوجود والحياة، كى يضع مكانها

نظرة أخرى، كلها خصّب وكلها قوة، وكلها حياة". وهذا هو ما أسمىه أنا "الإحلال الثقافي الشامل"، أي إحلال الثقافة الأوروبية، الحديثة، محل الثقافة الإسلامية القديمة. ولم يكن بدوى مخترعاً لفكرة الإحلال الثقافي الكامل، فقد عرفت دوائر عديدة، وأفراد أكثر عدداً، منذ الغزو الفرنسي لمصر سنة ١٧٩٨ م، وقد اجتهدوا لإنجازه، وهو ما عبر عنه الدكتور طه حسين في كتابه: "مستقبل الثقافة في مصر" حيث دعا إلى أن: "نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب". (١)

ومن أجل إنجاز تلك الثورة الروحية خطط بدوى لنفسه مشروعاً بحثياً كبيراً لتقديم "خلاصة الفكر الأوربي إلى أبناء هذا الجيل"، وما يريده بدوى من مشروعه الضخم هو أن يحمل أبناء هذا الجيل: "على أن يفكروا فيما فكر فيه العقل الأوربي... كي يتخذوا من هذا النظر وذلك التأمل والتفكير دافعاً ومادة وأداة من أجل إيجاد هذه النظرة الجديدة..". (راجع: نيتشه، التصدير).

فالغاية النهائية للثورة الروحية هي: إيجاد نظرة جديدة في الوجود والحياة لتحل محل النظرة القديمة التي هي النظرة الإسلامية، وعلى العقل العربي أن يفكر فيما فكر فيه العقل الأوربي، ولذلك بذل بدوى أقصى جهده لوضع ثمار العقل الأوربي أمام العقل العربي. فكتب عن أفلاطون وأرسطو والأبيقورية والرواقية، وعن فلاسفة العصور الوسطى الأوربيين. وعن الفلاسفة الأوربيين المحدثين والمعاصرين، وحقق مؤلفات ضخمة لأرسطو وتلاميذه العرب، وترجم لأعلام الفلسفة الوجودية.

وبعد مضي ستين عاماً على ثورة بدوى الروحية وبعد مضي مائتي عام على بداية عملية الإحلال الثقافي، وبعد الجهود الجبارة التي بذلت لإنجازه، لم يتم منه إلا القليل، وظلت النظرة الإسلامية سائدة، وعاد الإسلام في هيئة صحوة واسعة النطاق، وفي شكل حكم سياسي ودرساتير وشرائع وقوانين، واحتاج العلمانيون إلى الاستبداد والقمع وتزوير الانتخابات للاحتفاظ بالنظم العلمانية.

(١) انظر: مجموعة أعماله الكاملة - المجلد التاسع ص ٤٨ .

ولم تتشكل نظرة جديدة في الوجود والحياة، وإنما وجدنا نظريات أوربية مادية يتبناها بعض أساتذة الجامعات مثل أحمد لطفى السيد الذى روج لعقلانية أرسطو، وطمه حسين الذى بشر بالديكارتية، وزكى نجيب محمود الذى تبنى الوضعية المنطقية وبدوى الذى اعتنق الوجودية، وعدد من أتباع دارسى الفلسفة اتبعوا "هيجل" وجدليته، وماركس وماديته، وأرتال من البراجماتيين "النفعيين"!

ثم كانت الحادثة التى رجحت الوسط الثقافى العلمانى رجحة شديدة، ألا وهى تحول الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى الدفاع عن القرآن ضد منتقديه من الفلاسفة والمستشرقين الأوربيين، وإلى تقديم السيرة النبوية العطرة إلى شعوب أوربا بالفرنسية، والدفاع عن صاحبها ﷺ، وتوكيده أن: "القرآن يخرج دائماً منتصراً على منتقديه" (١).

وجودية بدوى:

وكان بدوى قد أعلن عن خطوط عريضة لمذهبه الوجودى فى رسالته لنيل درجة الدكتوراه سنة ١٩٤٣م، وتحت تأثير نيتشه وكر كجارد وهيدجر انتهى إلى القول بأن "الوجود زمانى" بمعنى أنه "لا وجود دون زمان".

"فإن كل ما يتصف بصفة الوجود لا بد أن يتصف بالزمانية" بل علاوة على هذا فإن ما يدعونه "فوق الزمان" أو "خارج الزمان" هو أيضاً زمانى. (٢) وهو هنا يرفض العقيدة الإسلامية التى تقرر أن الله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (سورة الحديد: ٣). فالله خالق كل شىء، وهو موجود قبل وجود المخلوقات، ومنها الزمان والمكان.

إن بدوى يعارض النظرة القديمة، هو يعارض القرآن الذى عاد هذه الايام إلى الدفاع عنه بحرارة ضد منتقديه!

وبعد إعلان مذهبه الوجودى سنة ١٩٤٤م، لم يواصل بدوى تطويره واستكماله. وقد كان رئيساً لقسم الفلسفة فى الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٢م، حين

(١) راجع الترجمة العربية لكتابه: "دفاع عن القرآن ضد منتقديه" ص ١٦.

(٢) راجع كتابه: "الزمان الوجودى" ص ٤٦.

كنت أنا طالباً بكلية الآداب في جامعة عين شمس، ودرّس لنا بدوى المنطق ومناهج البحث والفلسفة الإسلامية، ولم يُدرّس الفلسفة الوجودية، لكنه كان يعمل في دأب في خدمة مشروعه الثقافي الكبير؛ أعنى إحلال النظرة الوجودية محل النظرة الإسلامية، عن طريق تقديم الفكر الأوربي القديم والحديث والمعاصر إلى أبناء العربية، بتحقيق العديد من المؤلفات، وبالتأليف والترجمة. وحتى كتاباته تحت عنوان "الدراسات الإسلامية"، كانت لخدمة ذلك المشروع، فلم يكن معظمها جديراً بأن يوضع تحت هذا العنوان، وكيف يكون "منطق أرسطو" و"المثل العقلية الأفلاطونية" و"فن الشعر لأرسطو" و"أفلوطين عند العرب" - مثلاً - مؤلفات أو دراسات إسلامية؟! إن هذه الكتب دراسات في الفلسفة اليونانية القديمة التي تُرجمت إلى العربية وكانت المصدر الرئيسي للفلسفة العربية التي تسمى أحياناً الفلسفة الإسلامية. لكن من المؤكد أن بعض دراساته الإسلامية استحق وصفه "بإسلامية"، مثل كتابه: "مؤلفات الغزالي" الذي يمثل قدرات بدوى الفائقة في المثابرة والدقة وسعة الاستقصاء، تلك التي لا يضاهيه فيها أحد من المعاصرين. ولم يخطئ بدوى في حق مشروعه الثقافي الكبير بأن يحقق كتاباً في التفسير أو الفقه أو أصول الفقه مثلاً، إلى أن وقعت الواقعة الأخيرة في تطوره الفكري.

كان بدوى مولعاً بالفلسفة اليونانية القديمة، شديد الاهتمام بتجديدها، انظر إلى سطره التالية في مقدمة كتابه: "خريف الفكر اليوناني" الذي ألفه سنة ١٩٤٢م - وهو يومئذ، في الخامسة والعشرين من عمره - لتعرف قدر ذلك الولع. يقول بدوى: "فوداعاً إذن أيتها الروح الإلهية الخالدة! وداعاً أيتها المعجزة الإنسانية الكبرى. وداعاً أيها الرمز الأعلى للنبل والحق والجمال. ها أنت قد حققت الصورة العليا للإنسانية، وتجسدت كل القيم الأزلية، وهديت الإنسان سواء السبيل، وما على الأجيال المتلاحقة إلا أن تقيم لعبادتك المراسم والطقوس، صادرة في كل نبيل من الفعّال عن وحيك، وما علينا نحن المؤمنون بقداستك، المستلهمين لروحك، إلا أن نحاول اليوم جهدنا أن نُجددك، وأن نخلق روحاً جديدة على غرارك، إن كان شيئاً من هذا في الإمكان". (ص: و، ز)

ولم يكن هذا الكلام مجرد تعبير إنشائي انفعالي موقوت، وإنما تعبير جاد عن

المشروع الثقافي الكبير لبدوى، وعهد يقطعه على نفسه بالعمل والاجتهاد، لخلق روح جديدة، أو فلسفة جديدة، عقلانية، على منهج اليونان القدماء وأحفادهم الفلاسفة المعاصرين. وقد حقق بدوى - أو خيل إلينا أنه حقق - تلك الغاية حين أعلن عن مذهبه الوجودى فى رسالته الجامعية لنيل الدكتوراه.

القيمة العملية لوجودية بدوى :

فإذا تساءلنا: ما القيمة العملية لوجودية بدوى؟.. لم نجد للجواب سوى الدعم للمذاهب العلمانية التى عرفت فى أوربا، ونقلت إلى العربية، كالعقلانية، والوضعية المنطقية، والمادية، والبرجماتية. فهذه المذاهب تستبعد الدين - أو وحى السماء - وتقيم الحياة البشرية فى الجوانب الفكرية والعملية على العقل والتجربة، والخبرات البشرية عامة، وهذا هو ما اعتنقه بدوى، حين نفى كل وجود خارج الزمان، وبذلك نفى وجود الله، ونفى الوحى بنفى الألوهية، وهذا يقودنا إلى التساؤل عما إذا كان بدوى قد تخلى حقاً عن مذهبه الوجودى المناقض للإيمان الإسلامى؟

فى الجواب عن هذا التساؤل لا نجد جواباً واضحاً، قاطعاً. حقاً إن كلام بدوى فى مؤلفاته الإسلامية الأخيرة يوحى بأنه نبذ الوجودية الملحدة، وعاد إلى الإيمان بالله وبالقرآن وبمحمد ﷺ. فمن التناقض أن يدافع بدوى عن القرآن الكريم، ذلك الدفاع الحار القوى، وعن النبى ﷺ وهو لا يؤمن بهما. فإنا أرجح أنه نبذ الوجودية الملحدة، ولكن الموضوعية تقتضى أن نستبقى شيئاً من التحفظ فلم يعلن بدوى حتى وفاته إعلاناً صريحاً أنه نبذ الوجودية بعد أن اكتشف زيفها.

وبعد، فلا بد أن أخبر القارئ أننى إذا أثبت على بدوى أو انتقدته فذلك مبرراً من المشاعر الشخصية والتحيز معه أو ضده. ولا ريب أننى سعدت بتحوله الفكرى الأخير، ولكن ليس إلى الحد الذى ينسبى الموضوعية الواجبة فى الدراسات العلمية. وقد كان بدوى أستاذاً لنا فى قسم الفلسفة، لكنه كان عديم الصلة بنا، ربما تطبيقاً لفلسفته! ^(١) ولذلك يكذب كل تلميذ لبدوى يزعم أنه أقام معه علاقات إنسانية حميمة كتلك التى كنا نسمع أنها تسود فى علاقة الأسانذة بتلاميذهم. أما الاحترام والتقدير والإعجاب فله منا القدر الأوفى، رحمة الله عليه.

(١) راجع كتابه: دراسات فى الفلسفة الوجودية ط ٢ سنة ١٩٦٦ ص ٢٤٠.

قراءة فى كتاب «دفاع عن القرآن ضد منتقديه»

هذا كتاب قِيمَ بالمعايير الإسلامية والعلمية والثقافية، وتتضاعف قيمته بقيمة مؤلفه الدكتور عبد الرحمن بدوى، الذى يتبوأ القمة السامقة فى مجال الدراسات الفلسفية فى العالم العربى، والذى يتمتع بالاستقلال الفكرى، ويرفض بكل صراحة ممالأة السلطة – أية سلطة – سواء سياسية أو أكاديمية أو ثقافية، وهو الذى لم يقبل المساومة على فكره، أو التكبس من قلمه، كما فعل غيره. وبذلك عاش فريداً، فذاً، فى استقلاليته وتحرره، إلا مما يوقن بأنه الحق والعدل، فكان بذلك قدوة رائدة لأجيال من الباحثين والكتاب والمفكرين.

ومن المؤكد أن الذين لا يعرفون الدكتور بدوى وخطه الفكرى الأول لن يندهشوا إذا قرأوا له كتاباً كهذا الذى بين أيدينا، حيث يدافع عن القرآن الكريم ضد منتقديه من المستشرقين. فمن الطبيعى أن يفعل ذلك أى أستاذ مسلم يقدر عليه، ولكن الذين يعرفون الدكتور بدوى ونزعتة الفلسفية لا بد أن تبلغ بهم الدهشة مداها فلا يكاد الواحد منهم يصدق ما يقرأ!

فلقد كان الدكتور بدوى باحثاً علمانياً منذ كتب رسالته لنيل الماجستير وفى مؤلفات الشباب، وفى رسالة الدكتوراه، وهى دراسة فى الفلسفة الوجودية الملحدة! وكانت خطته المعلنة أن يواصل تطوير أفكاره الوجودية التى بلورها فى تلك الرسالة، وقد قطع شوطاً فى خطته تلك، تأليفاً وترجمة.

وترك الدكتور بدوى مصر، لينتهى به المطاف فى فرنسا، منذ حوالى ربع قرن. وفى فرنسا، ووسط مناخ ثقافى علمانى مادى يعادى الأديان، والإسلام خاصة، حدث تحوله الفكرى قليلاً قليلاً، حتى أصبح الفيلسوف الملحد – سابقاً – المحامى الأكبر عن القرآن، وعن الإسلام، وعن نبي الإسلام! وعلى يديه انتصر القرآن الكريم على كل منتقديه المتعصبين من المستشرقين اليهود والنصارى والملاحدة. وقد أودع دفاعه العلمى الرصين الموضوعى، فى هذا الكتاب، وواجههم به فى عمر دارهم وبلغتهم!

ولا ريب أن هذا الكتاب الوجيه (١٨٠ صفحة) لطمة قوية للاستشراق . فإذا كانت نظرة الكثيرين إليهم - قبل صدور هذا الكتاب - نظرة الثقة والتبجيل، فإن نظرتهم لا بد أن تتبدل، فيحل الارتياح محل الثقة والاستخفاف محل التبجيل . وكيف لا بعد أن أثبت بدوى أن كثيرين منهم، بل من كبارهم، متعصبون، كذبة، وحاقدون مدلسون!؟

وكيف لا بعد أن أثبت بدوى أن التعصب ساق كثيرين من كبارهم إلى العمى والهديان!؟

و الدكتور بدوى هو أقدر الباحثين العرب على إعادة تقويم أعمال المستشرقين، بسبب استقلاليتته الفكرية، وسعة علمه، ومعرفته لأكثر من عشر لغات أجنبية، وتفرغه التام للبحث العلمى .

الترجمة العربية:

وقبل أن نعرض لمضمون الكتاب نقدم تقويمنا للترجمة العربية .

فنبداً بشكر الدكتور جاد الله على ترجمته لهذا الكتاب الثمين، ومن المؤكد أنه عانى الكثير لإتمام ترجمته . والظاهر أن الترجمة لم تنل حظها من المراجعة والتدقيق، فوقعت أخطاء عديدة متنوعة نبيئها فيما يلى :

وأول خطأ يتمثل فى الاضطراب فى ترتيب اسم المؤلف واسم الكتاب واسم المترجم . فورد اسم المترجم ثلاث مرات، ووضع قبل اسم المؤلف فى إحداها، وورد خماسياً أخرى! ويظهر أن العنوان الفرنسى (ص ٣ من الترجمة العربية) قد سقطت منه كلمة *contre*

ويشعر القارئ بأن المترجم أضاف من عند نفسه بعض الكلمات والعبارات دون أن يشير إلى ذلك، مثل كلمة: "سيدنا" (محمد) وعبارة "رضى الله عنه" . ولا مانع من هذه الإضافات شريطة أن يبين ذلك، ويحصرها بين أقواس، ويذكر فى الهوامش أنها من عنده .

وأورد المترجم آيات قرآنية دون أن يحصرها بين أقواس، فاختلطت بكلامه! هذا فى أول الترجمة، لكنه تدارك الأمر بعد ذلك . وكان عليه أن يضع أقواساً حول كل الآيات القرآنية بدون استثناء لكنه لم يفعل .

ويضطرب نص الترجمة أحياناً بحيث يستحيل فهم المراد منه! مثال ذلك فقرات
في الصفحات أرقام ٨، ٩، ٤٩، ٦٠، ٧٨، ١٢٢ .

وأضاف إلى ذلك سوء الترقيم وسوء التبويب مما جلب صعوبات كثيرة تعرقل
الفهم السديد للنص . فهناك نقص في علامات الترقيم، وهناك أخطاء في استعمالها .
وقد كثر الترقيم وتعددت الأرقام والرموز وتداخلت بصورة مربكة للقارئ العربي
(انظر ص ١٣٤ مثلاً) .

ولم يورد المترجم الأسماء الأجنبية بالحروف اللاتينية، ثم إنه لم يثبت - أحياناً -
على صيغة عربية لرسمها، من ذلك مثلاً أنه كتب اسم المستشرق "سبير" بثلاث
طرق، فكان : إسباير، وسابير، وسبير! (ص ٥٨ ، ص ١٢٩) .
وبالإضافة إلى هذا هناك أخطاء مطبعية وإملائية وأسلوبية .

وقد اقترح المترجم مراجعة المصادر العربية الكبرى، مثل تفسير الطبري " حتى
لا تظل هذه الكتب بحالتها قاعدة ينطلق منها الطاعنون على الإسلام " . (ص ١٠) .

لكنه لم يوضح كيف تكون تلك المراجعة، فإذا تذكرنا أن تلك الكتب طبعت
ونشرت مرات عديدة، ونسخها موجودة في معظم مكتبات العالم، وفي أيدي آلاف
الأفراد، لأدركنا أن العمل الوحيد الممكن هو العناية بالتعليق والشرح والتمحيص
الدقيق لما ورد بها من أخبار وآراء، وإبراز الحقائق وتوكيدها، وتزييف الزائف منها، ثم
إعادة نشرها . يضاف إلى هذا مواجهة الطاعنين على الإسلام المواجهة العلمية
الموضوعية الرصينة، كما فعل أستاذنا الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه
موضوع العرض هنا .

لماذا ينتقد المستشرقون القرآن الكريم؟

يعتقد المستشرقون أن محمداً ﷺ هو الذي ألف القرآن، ولإثبات اعتقادهم
هذا حاولوا اكتشاف أية أخطاء في القرآن؛ كما حاولوا إثبات أن محمداً ﷺ كان
يعرف القراءة والكتابة، وأنه قرأ التوراة والإنجيل والمزامير، واستفاد منها في تأليف
القرآن!

وقد عرض الدكتور عبد الرحمن بدوي بالبحث لحوالي اثنتي عشرة مسألة، تمثل

أمهات المسائل لدى المستشرقين. وأثبت زيف آرائهم جميعاً. وأكد أن القرآن الكريم يخرج منتصراً عليهم في كل تلك المسائل. فلا وجود لتلك الأخطاء والافتباسات الوهمية المزعومة.

(١) أمية النبي ﷺ :

بذل المستشرقون جهوداً مضنية لإثبات أن النبي ﷺ نقل عن التوراة والأناجيل والمزامير. ولا بد أن يكون النبي عارفاً للقراءة والكتابة لكي يتيسر له النقل والافتباس. فكان لا بد من نفى الأمية عنه، تلك التي اثبتتها القرآن الكريم في أكثر من آية. ويعلق الدكتور بدوى على آرائهم في هذه القضية فيقول إنه: "لكي نفترض صحة هذا الزعم لا بد أن نفترض أن محمداً كان يعرف اللغات العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان يملك مكتبة عظيمة تشتمل على كل الأدب التلمودى والأناجيل المسيحية"، لكن محمداً لم يعرف سوى العربية، ويستحيل إثبات معرفته لاية لغة أخرى. وسيرة النبي ﷺ تؤكد أنه لم يقرأ ولم يكتب، وإلا لما أملى آيات التنزيل على كتبه الوحي.

فمزاعم المستشرقين حول أمية النبي ﷺ "فروض زائفة"، وتفسيراتهم خاطئة وسخيفة وعابثة ودعواهم كاذبة (ص ٢٢، ٢٣).

(٢) وقد حاول المستشرق "هيرشفيلد" عقد مقارنات بين "سورتي الرحمن والنحل"، و"المزامير" للعشور على أوجه شبه تسوغ له الزعم بأن محمداً نقل عن المزامير!

وبعد الدراسة الدقيقة ينتهي الدكتور بدوى إلى القول إن محاولات "هيرشفيلد" عبث وادعاء وهذيان مرضى! (ص ٣٠، ٣٣، ٣٦). وأن دراساته الثلاث "ليس لها قيمة، لأنها قائمة على أوجه شبه افتراضية، وعلى آراء مبتسرة، ومقدمات لا أساس لها، وتفتقر إلى الفهم افتقاراً كاملاً. وتعويضاً ومكافأة له عن تلك الصفات (غير العلمية)، أصبح هيرشفيلد أستاذاً بجامعة لندن سنة ١٩٢٤م". (ص ٣٨)

والدكتور بدوى يشير هنا إلى حقيقة معروفة ومخجلة، وهي أن كثيراً من

الجامعات الأوروبية والأمريكية لا تفسح مجال التدريس فيها - فى أقسام الدراسات الشرقية - إلا لامثال "هيرشفيلد" من المتعصبين ضد الإسلام.

(٣) وحاول "جانو" - أيضاً - افتعال أوجه شبه بين الآية رقم ٣٥ من سورة النور، وفقرة من كتاب زكريا "العهد القديم". وينفى الدكتور بدوى وجود أى تشابه بين النصين. ويقول إن تشابه "جانو": "هذيان اختلقه من خياله هو"، (ص ٤١) فلا وجود لأى تشابه فى الحقيقة.

(٤) ثم ينتقل الدكتور بدوى إلى مناقشة مزاعم "هوروفيتس" (١٨٧٤-١٩٣١) بأن عبارة "أيام الله" التى وردت فى القرآن الكريم مقتبسة من التراث اليهودى. وبعد فحص مزاعم "هوروفيتس" يصفها بدوى بأنها زيغ وضلال، ويقول إن صاحبها كان دائماً: "أستاذ هذا الضلال" (ص ٤٣).

وقد حاول "هوروفيتس" إثبات أن النبى ﷺ اقتبس ألفاظاً عديدة من التراث اليهودى، (مثل ألفاظ: عبادة - صدقة - أمانة!)، ويعلق بدوى على هذا الهراء قائلاً: إن اللغتين العربية والعبرية لغتان ساميتان، ومن ثمة وجدت فيهما ألفاظ متشابهة عديدة: "ومن المستحيل أن نحدد من اقتبس تلك الألفاظ من الآخر: العربية أم العبرية؟"، وعلى هذا يقرر الدكتور بدوى أنه: "ليس من الممكن أن نقول إن محمداً ﷺ اقتبس هذه الألفاظ المشتركة مباشرة من يهود عصره" (ص ٤٤). وهذا منطوق سديد لا يمكن رفضه.

(٥) وحاول "هنرى سببير" إثبات أن الآيات التى وردت فى سورة الكهف (رقم ٣٢-٤٤) مقتبسة من "مدراس رابال اللاوى". ويعقد بدوى مقارنات مفصلة بين النصين تنفى وجود اقتباس، "فليست هناك علاقة مطلقاً بين التشبيه القرآنى - الذى ورد فى هذه الآيات الكريمات - وهذه المدراس، لا فى التعبير ولا فى المحتوى، ولا فى الفائدة التى نخرج بها منها"، (ص ٥٤). ويرد بدوى مزاعم "سببير" إلى التعصب الذى أعمى قلبه، ويقول إن: "حالته مثل حالة "هيرشفيلد" تحتاج إلى علاج نفسى" (ص ٥٥). و"إن دراساته عبث وعار على العلم" (ص ٥٧).

وعلى المتوال نفسه، وللغرض غير العلمى ذاته، حاول نفر من المستشرقين إثبات

أن لفظ "الفرقان" الذي جاء في التنزيل الحكيم مقتبس من لفظ "فرقانة" السرياني، أو الكلمة اليهودية الآرامية "فرقان"، ومعناها "الإنقاذ" في المسيحية. ويعلق بدوى على هذه الادعاءات قائلاً: "إنها سخف لا تشهد بصحته أية وثيقة أو أى مصدر"، (ص ٦٣) ويبين أن لفظ "الفرقان" لفظ عربى، وهو اسم فعل أو اسم مصدر من الفعل "فرق".

(٦) وقد خصص الدكتور بدوى الفصل الرابع لمناقشة خرافات المستشرق "مارجوليوت" (١٨٥٨-١٩٤٠م) الذى عاش طفلة حياته عدواً لدوداً للإسلام. ودفعه تعصبه البغيض إلى أن يسوق أحكاماً بالغة الغرابة هاجم بها النبى ﷺ وأنكر رسالته، كما يقول بدوى بحق (ص ٦٦-٦٧). ومن أمثلة هذيان "مارجوليوت" زعمه أن لفظ "مسلم" يعنى واحداً من أتباع مسيلمة!! وأن إبراهيم - عليه السلام - لم يكن معروفاً للعرب فى مكة قبل بعثة النبى ﷺ وذلك هو الزعم الذى أخذه عنه طه حسين، وأثار ضجة كبيرة.

ويعلق بدوى على كلام هذا المستشرق فيقول: "إنه لو كان يعرف حداً أدنى من اللغة العربية لعلم أن النسبة إلى "مسيلمة" هى "مسيلمى" وليس "مسلم"! ولكن تعصبه أعماه" (ص ٦٧). وعن المسألة الثانية: يذكر بدوى أن العرب فى مكة وفى الجزيرة العربية عرفوا اليهود والنصارى واختلطوا بهم. وإذا كان إبراهيم - عليه السلام - معروفاً يقيناً لليهود والنصارى، فهو معروف لدى خلطائهم من العرب دون شك.

ومن آراء المستشرق "مارجوليوت" المضحكة زعمه أن صلاة المسلمين وصيامهم وتحريم الخمر، كل ذلك مرتبط بالتدريبات العسكرية!! وهذا هراء لا تصح مناقشته أصلاً!

(٧) وأما "جولد تسيهر" (١٨٥٠-١٩٢٠) فيزعم أن عقيدة التوحيد فى الإسلام مقتبسة عن اليهودية، وينفى بدوى هذا الزعم مبيناً أن الإله فى اليهودية هو إله عنصرى لليهود وحدهم دون سائر البشر، فى حين أن الله فى الإسلام هو ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وحاول "جولد تسيهر" إثبات أن صيام رمضان والقبلة وتركية الذبائح مقتبسة عن اليهودية.

ويأخذ عليه بدوى هنا الافتقار إلى الأدلة والشواهد، الأمر الذى يجعل مزاعمه زائفة (ص ٧٤-٨٠). والحق أنه بغير أدلة وشواهد ومصادر علمية موثوق بها لا يجوز لأحد أن يقول بمثل تلك الآراء. فإذا تجاسر وانتهك أصول المناهج العلمية، سقط من زمرة العلماء ولم تعد لآرائه أدنى قيمة.

(٨) وقد أثار "أسبرنجر" و"هوروفيتس" و"كارادى فو" مسألة الصابئين، الذين ذكروا فى القرآن الكريم، وزعموا أن النبى ﷺ قد عرفهم عن طريق اليهود. وقد وعد الله الصابئين الذين يؤمنون بالإسلام القبول والجزاء الحسن شأنهم شأن اليهود والنصارى، فقال - عز وجل - ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، ولا يهمننا نحن المسلمين أن تكون ثمة مشكلة تتعلق بعقيدة الصابئة قبل الإسلام.

(٩) ويناقش بعد ذلك آراء "فنسك" الخيالية فى مسألة "رسل الله" حيث يدعى أن الفكرة مأخوذة عن اليهود والنصارى! (ص ٩٠) ويبين الدكتور بدوى أن الرسل فى الإسلام غير الرسل فى المسيحية. فكلمة "الشالوهط - أى الرسول - العبرية تعنى: المرسل (بفتح السين) إلى شخص معين. والرسل فى الأناجيل مرسلون من لدن المسيح. أما فى الإسلام: "فالرسول هو من أرسله الله بدين جديد وكتاب مقدس معبر عن هذا الدين. والنبى مهمته البشارة والإنذار فحسب". وينتهى بدوى إلى القول بأنه: "من العبث أن نعقد مقارنة فى هذا الموضوع بين المسيحية والإسلام! والأكثر عبثاً أن نزعم أن الرسول ﷺ استعار مصطلح "الرسل" من المسيحية"، (ص ٩٠-٩١).

(١٠) وأما "نولدكه" فزعم أن البسملة مقتبسة من الإنجيل، ويؤكد بدوى أن هذا الزعم لا يقوم على أى برهان أو دليل، ولا يوجد مصدر يشهد له بالصحة. فهو مجرد فرض زائف. ويقول: "عبثاً بحثت فى العهد القديم فلم أجد شيئاً عن صيغة "بسم ياهوا" كصيغة للصلاة ومناجاة الله كمعنى البسملة فى القرآن الكريم". وقد جاء فى سفر الملوك الأول: "ثم تتضرعون باسم آلهتكم، وأنا أدعو باسم الرب إلهى".

(طبعة كتاب الحياة) فلا يوجد أى تشابه، فالمسألة مجرد مزاعم كاذبة لا دليل عليها (ص ٩٥-٩٦).

(١١) وبحث المستشرقون مسألة ترتيب سور القرآن الكريم بحسب نزولها. وكان علماء المسلمين قد اعتنوا بذلك لمعرفة الناسخ، والمنسوخ. والمنسوخ هو الذى تنزل سابقاً. والناسخ هو الذى نزل بعد، ولكن المستشرقين أرادوا اكتشاف " تطور " في أسلوب محمد مؤلف القرآن وغرضهم هو هو: أعنى إثبات أن القرآن تأليف بشرى لا تنزيل من حكيم حميد. فيقول بدوى: " إنه من الشطط، إن لم يكن من الكذب، أن نزعم أن باستطاعتنا ترتيب السور تاريخياً - فى الفترة المكية - حسب الأسلوب ". ولذلك باءت محاولاتهم بالفشل، ويؤكد بدوى أن القرآن قد رتب فى كتاب واحد هو - المصحف الإمام - فى عهد النبي ﷺ (ص ١١٣)، وينفى أن يكون لآى مستشرق فضل فى عملية ترتيب السور حسب نزولها.

(١٢) والتقط المستشرقون مسألة الألفاظ الأعجمية فى القرآن الكريم، وهى التى أثارها بعض الصحابة، وأدلى فيها الأئمة الكبار بأرائهم. فعبد الله بن عباس أثبت وجود كلمات غير عربية فى القرآن الكريم، وكذلك أبو موسى الأشعري. وهناك من ينفى وجود مثل تلك الألفاظ، كالإمام الشافعى. ويأخذ بدوى بمذهب ابن عطية الذى يقول إن تلك الألفاظ ليست عربية لكن العرب عربوها واستخدموها فأصبحت عربية قبل نزول القرآن الكريم.

أما المستشرقون فكان غرضهم إثبات أن محمداً قد اقتبس من التوراة والأنجيل والمزامير... إلخ!!

(١٣) وظن المستشرقون أنهم اكتشفوا خطأ فى القرآن الكريم، فى سورة مريم، حيث ورد النداء ﴿ يَا أُخْتُ هَارُونَ ﴾ وقد توهموا أنه يعنى أن مريم - عليها السلام - هى أخت هارون وموسى! وهذا خطأ كبير، والحق أنهم هم الذين تورطوا فى خطأ كشف عن جهلهم باللغة العربية!

ويقول الدكتور بدوى إن المشكلة لم تثر فى حياة النبي ﷺ لسبب يسير هو أن يهود المدينة ومسيحييها لم يروا فى الآية ﴿ يَا أُخْتُ هَارُونَ ﴾، أية مشكلة لأنهم

فهموا أنها تعنى: "يا منحدر من نسل هارون"، كما كانوا يفهمون تعبيرات مثل: "يا اخا بنى فلان بمعنى "يا منحدر من سلالة فلان". ويستشهد الدكتور بدوى بوجود مثل هذا التعبير فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَاللّٰى عَادِ اٰخَاهُمْ هٰودًا﴾، ﴿وَاللّٰى مَدْيَنَ اٰخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، فهو لا يعنى الأخوة، وإنما الانتساب إلى القبيلة أو القوم أو الذرية، وهذه حقيقة أسلوبية عربية معروفة لكل من له إلمام باللغة العربية، ولكن التعصب أعمى أبصار المستشرقين.

(١٤) وفى الفصل الأخير من كتابه يعرض الدكتور بدوى لجزئية من قضية الاقتباس المزعوم، ألا وهى قضية "هامان" الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم، وبما أن "هامان" ذكر فى التوراة فلا بد أن يكون محمد قد اقتبسه عنها!

ويعلق الدكتور بدوى على مزاعم المستشرقين حول "هامان" فيقول: "إن هامان المذكور فى الآيات القرآنية الست ليس اسم شخص، ولكنه لقب للكاهن الأكبر لفرعون"، ويضيف قوله: "إن اسم هامان فى القرآن موافق لاسم "أمون"، والتقارب بين الاسمين كبير جداً، لأن "أمون" ينطق أيضاً "آمانا". وينتهى إلى القول إن "كل الانتقادات-التي وجهها المستشرقون إلى القرآن الكريم بخصوص هذه المسألة-فاسدة ومغرضة" (ص ١٧٩).

وهذا هو للأسف الشديد نوع المعرفة التى ينتجها بعض المستشرقين الأوربيين والأمريكيين فى حقل الدراسات الإسلامية والتى يغذون بها شعوبهم. وهذه مناهجهم، وتلك هى أغراضهم، بعد أن عرأها الدكتور بدوى. وبهذا الكتاب المهم تتبدد تلك الأسطورة التى صورت المستشرقين بوصفهم المثل الأعلى الذى ينبغى أن يحتذى فى كل مجالات البحث العلمى.

والحق أن المستشرقين يتحلون بالموضوعية، بل والتعاطف، حين يبحثون فى أية ملة غير الإسلام. أما حين يتناولون الإسلام ونبيه وكتابه وتاريخه، فإن التعصب الموروث يستولى على عقولهم ويطمس عليها، فينسبون مناهج العلم الموضوعى، ويسلمون أنفسهم للأحكام المسبقة الباطلة التى رأينا منها فى كتاب الدكتور بدوى الكثير، والشنيع.

وزاد الطين بلة أن الغرب - بعد سقوط المعسكر الشيوعي- بدأ يتخذ من الإسلام عدوًّا وبدأت كتابات عديدة تصور المسلمين على أنهم إرهابيون معادون للحضارة الغربية، كما تصور العالم الإسلامي على أنه مملكة الشر ومصدر التهديد لأمن القرن الحادى والعشرين (كما قال كلينتون يوم ١٤ / ١١ / ١٩٩٧)، فى أزمة مفتشى الأسلحة الأمريكيين الذين طردهم العراق .

ولم تعد الأحكام المسبقة والضلالات والأوهام التى ينتجها العقل الاستشراقى محصورة فى المجال الأكاديمى، فقد تلقفها الإعلام الجهنمى وأخذ ينشرها على أوسع نطاق، وتسرب الكثير منها أيضاً إلى المناهج الدراسية فى معظم البلاد الأوربية . وبهذا يربون الأجيال الجديدة على كراهية المسلمين، ويعدونهم لقبول أية قرارات بحصار الشعوب المسلمة، (كما هو الحال الآن مع السودان وأفغانستان وفلسطين)، والموافقة على أية تدخلات عسكرية " لحماية أمن القرن الحادى والعشرين " .

● فماذا نحن فاعلون؟ إننا نسمع عن تحركات للتصدى لهذا الخطر تقوم بها جهات حكومية مصرية وعربية، ولكن المسألة تحتاج إلى تعبئة عامة: أكاديمية وإعلامية وثقافية، ودبلوماسية وسياسية. ولا جدوى من مؤتمرات الحوار التى ينظمها الموظفون، ولا تخطط لآى عمل جاد مؤثر.

ولا ريب عندى أن كتاب الدكتور بدوى له من الأثار ما يفوق كل المؤتمرات التى عقدت فى السنوات العشر الأخيرة. ولو كان الأمر بيدى لنشرته بكل لغات العالم، ووزعته مجاناً فى أوروبا وأمريكا، خدمة للإسلام والقرآن والمعرفة الصحيحة .

* * *

فؤاد زكريا

حقيقة انتمائه:

أجرى أحد المحررين الصحافيين حديثاً مع الدكتور فؤاد زكريا نشرته إحدى الصحف المصرية يوم ٨/١٢/١٩٨٨م، وقدم له بإيجاز فقال إنه: "لا ينتمى إلى تيار، ومن الصعب وضعه في قالب فكري محدد. فهو في كل ما يقول ويكتب مفكر مستقل... إلخ.

ولا ريب أن "المفكر المستقل" أمنية وطنية وقومية نرتجئها جميعاً. لكن موقف الدكتور فؤاد زكريا للأسف الشديد هو على النقيض مما جاء في تقديم الأستاذ المحرر!! ولقد بين الدكتور فؤاد بوضوح كبير انتماءاته الفكرية الحاسمة منذ الخمسينيات. فهو في مقالاته ومحاضراته وبحوثه وكتبه يلتزم "اليسار"، ويؤكد اقتناعه بالتفسير المادى الاقتصادى الماركسى للفكر والثقافة والدين والقيم، وينافح بكل قوة عن الاشتراكية "المكتملة النمو" - أى الشيوعية - بوصفها الحل الأمثل لمشكلات مصر والعالم الثالث... ولذلك هو يقاتل كل فكر وكل دين، وكل ثقافة تعادى هذه الانتماءات!! ونحن نحاول فى السطور التالية أن نبين هذه الحقائق، مستنديين إلى أقواله، وفى إيجاز أيضاً.

(١) الانتماء إلى اليسار:

إن الدكتور فؤاد زكريا يصنف الفلسفات الإنسانية إلى: "فلسفة يمينية" و"فلسفة يسارية"، وهو يصف الفلسفة اليمينية بالتعقيد والعقم... فهى فى نظره لا تحقق شيئاً، ولا ترتبط بالمشكلات الحقيقية التى تواجهها الجموع الكبيرة من البشر فى حياتها الفعلية، ولا تسهم بأى دور فى تحقيق رغبة الإنسان الدائمة فى تغيير المجتمع المحيط به، والثورة على أى وضع ظالم يجد فيه نفسه... ومن المؤكد أن المذاهب اليسارية - هى وحدها - التى تتصدى لتحقيق هذه الغاية. (١)

(١) راجع كتابه: آراء نقدية، ص ٢٢٢، ٢٢٥.

ففى الفلسفة اليمينية: التعقيد، والعقم. وفى الفلسفة اليسارية: البساطة، والالتصاق بمشكلات الإنسان، والإسهام فى القضاء على الظلم، والثورة عليه. ومن الواضح أن الإنسان الذى يقول هذا لابد أن يكون يسارياً. وهذا هو انتماء الدكتور فؤاد زكريا، وهو لا ينفيه عن نفسه. بل يعتز بذلك، ويجاهر به فى كل مكان!

(٢) الانتماء إلى الماركسية:

ويتأكد الانتماء الأول بالانتماء الثانى إلى "الماركسية"، وهى فلسفة مادية باتفاق الجميع، ومن أهم أصولها الزعم بأن التطور الآلى فى وسائل الإنتاج يفسر سائر مناحى الحياة. فيقول الدكتور فؤاد زكريا: "كل مظاهر التقدم فى حياة الإنسان الحديث - وحين نقول التقدم نعنى الثقافي والمادى منه فى آن واحد - لها ارتباط وثيق بالتطور الآلى فى حياته".^(١) ثم يتبع هذا الحكم الكلى بحكم آخر أشد منه تطرفاً فيقول: "إن كل مشاكل العصر تدور حول هذا المحور الواحد".^(٢)

وهذه هى وجهة النظر "الأحادية" الضيقة فى صورتها المتطرفة.. فهناك عامل واحد بعينه.. هو العامل الأول، والوحيد، المؤثر فى كل ما عداه.. هو العامل المادى، الآلى الذى سماه هو "المحور الواحد".. وهذه هى وجهة النظر الماركسية الشهيرة التى يتبناها الدكتور فؤاد!

وتغير شكل الإنتاج هو الذى أدى إلى التحول من النظام الإقطاعى إلى النظام الرأسمالى.

وكان من الطبيعى أن ينعكس تأثير هذه التغيرات الحاسمة على العادات العقلية، والنزعات الفكرية للإنسان فى العصر الرأسمالى..^(٣) فالاقتصاد هو الذى غير الفكر والعقل فى العصر الرأسمالى وشكله!

والدين ذاته يتطور تبعاً لذلك "المحور الواحد". فتغير وسائل الإنتاج غير الدين المسيحى.

بل كان لابد للدين أن يتأثر بها، وأن يتلاءم مع الظروف الجديدة التى طرأت

(٢) الموضوع نفسه.

(١) راجع كتابه: الإنسان والحضارة، ص ١٢٩

(٣) راجع كتابه: الجوانب الفكرية، ص ٢٩.

على حياة الأوربيين... وإذن فقد كان لابد أن يحدث انقلاب فى ميدان الدين يوازى الانقلاب فى الميدان الاقتصادى والعلمى والفنى". (١) وهو يفسر الإصلاح الدينى لدى "لوثر" على أنه: "من مظاهر حاجة الرأسمالية فى بداية نشأتها إلى عمال يمكن استغلالهم اقتصاديا على أساس من العقيدة". (٢)

حتى التعصب، لم يعجبه إلا تفسير الماركسية له!! (٣)

وبالمثل يفسر نهضة الفلسفة اليونانية على أيدي سقراط وأفلاطون وأرسطو بردها إلى العوامل الاقتصادية. "ومعنى ذلك أن النهضة العقلية والروحية فى اليونان القديمة كانت مرتبطة بالنهوض الاقتصادى الشامل". (٤)

وأحسب أن هذا القدر يكفى لبيان انتماؤه الثانى بوضوح. فهو يتابع فروض الفلسفة الماركسية المادية التى أرادت أن تفسر كل شىء برده إلى الاقتصاد، ووسائل الإنتاج. وهو قد حشر نفسه برضاه، بل بحماس شديد داخل القوالب الضيقة الجامدة للماركسية وتفسيرها المادى الاقتصادى الأحادى لكل الظواهر المادية والاجتماعية. فكيف يجوز أن يقال إنه مستقل الفكر، ولا ينتمى إلى تيار، ومن الصعب وضعه فى قالب فكرى؟

(٣) الانتماء إلى الاشتراكية الشيوعية:

إذن، ينتمى الدكتور فؤاد بوضوح قاطع إلى الاشتراكية الكاملة. أرى الشيوعية.. وهو يرفض الاشتراكية "المعتدلة" التى طبقها عبد الناصر. وهو بهذا يؤكد انتماءه الأول ثم الثانى ويشرحهما. وفى هذا يقول: "إن حل المشكلات التى أسفرت عنها التطبيقات الاشتراكية فى العالم الثالث، وفى مقدمتها مصر، لن يكون بالالتجاء إلى أنصاف الحلول. بل بمزيد من الإصرار على السير فى الطريق الاشتراكى والتمسك به. وإذا كان من الشائع أن يقال إن الاشتراكية الوحيدة التى تصلح لبلاد العالم الثالث هى "الاشتراكية المعتدلة" فإن حالة التخلف التى تعانىها هذه البلاد تدعونا إلى التفكير ملياً قبل إصدار حكم كهذا. إذ أن "الاعتدال" إذا كان صفة مستحبة فى أمور

(٢) نفسه؛ ص ٣٤ .

(٤) نفسه؛ ص ١٢ .

(١) انظر كتابه: الجوانب الفكرية؛ ص ٧٦، ٧٧ .

(٣) انظر كتابه: آراء نقدية؛ ص ٥٤ .

كثيرة فإنه ليس بالشئ المرغوب فيه عندما يكون الأمر متعلقاً بمسيرة المجتمع نحو التقدم ونحو اللحاق بركب الحضارة العالمية". (١)

فهو لا يوافق على الاشتراكية "المعتدلة" أو أنصاف الحلول! والحل الكامل في نظره هو الاشتراكية غير المعتدلة. أي الشيوعية!! فهي التي تضمن لنا التقدم واللاحق بركب الحضارة العالمية. وهو يتجنب لفظ "الشيوعية" لبشاعة وقعه على أسماع المصريين، ويعمد دائماً إلى استعمال لفظ "الاشتراكية"، ويعنى بها الشيوعية، وأحياناً يستخدم عبارة "الاشتراكية المكتملة التحقيق". (٢)

وقد أعلن الدكتور سنة ١٩٧١م أن المرحلة التالية في تطورنا الاجتماعي: "نريدها أن تكون اشتراكية". (٣) وقال: "إن الاشتراكية هي في واقع الأمر نقطة بداية لتطورات هائلة لا بد أن تتلوها". (٤) وقال أيضاً: "إن الانتماء إلى الاشتراكية على التحديد قد أثبت في حالات كثيرة أنه هو الحل الأمثل لمشكلة التخلف بالنسبة إلى هذه المجتمعات". (٥)

فهل ثمة دليل أوضح وأصرح من كلام الرجل نفسه عن انتمائه الحميم إلى "الاشتراكية المكتملة التحقيق"، وعدم رضاه عن "الاشتراكية المعتدلة"، وعن إيمانه الراسخ بأنها هي الحل الأمثل لتخلفنا؟! وهل يبقى بعد هذا أي مجال للتشكيك في انتمائه وتبعيته للماركسية ونظامها الشيوعي؟! ولماذا نفى عنه أشياء يحصر هو نفسه على إثباتها لنفسه!؟

وكما أن انتماءات الدكتور فؤاد مؤكدة فإن عداواته الفكرية مؤكدة بالقدر نفسه. فهو يقف في جانب الرفض الصارم القاطع لكل الفلسفات العقلية والمثالية والدينية التي تقول بوجود أي كائن غير المادة، أو تساند الإيمان بالله من قريب أو بعيد. فهي عنده فلسفة يمينية رجعية.. جامدة متحجرة.. لاهوتية عقيم!! (في سلسلة طويلة من أمثال هذه الأوصاف الرديئة).

وإعجاب الدكتور فؤاد يستحوذ عليه الفلاسفة الماديون والملاحدة وحدهم، كما

(٢) نفسه، ص ١٢٣ .

(٤) نفسه، ص ١٠١ .

(١) آراء نقدية؛ ص ١٥٠ .

(٣) نفسه، ص ٢٤ .

(٥) نفسه، ص ١٥٤ .

أن لعناته تنصب على من تسول له نفسه إبداء أى قدر من التعاطف مع الإيمان بالله وبالملائكة والروح . . اللهم إلا الروح الشيوعية التى يتميز بها الكوبيون والفيتناميون والسوفيت !!

عداء للإسلاميين لا حباً فى الديمقراطيين :

وموقف الدكتور فؤاد زكريا من الحريات والديموقراطية يتغير ويتلون، وينقلب من الضد إلى الضد! فإذا شعر بأن الديمقراطيه يمكن أن تتيح للإسلاميين الظهور، هاجمها بضراوة، وأيد الاستبداد والبطش، وفلسف مواقف العسكر، وروج لها فى كتبه ومقالاته!

فعندما أخذ الرئيس السادات يتحدث عن الحريات سنة ١٩٧٢، بعد طرد المجموعة الناصرية الماركسية من رفاق الدكتور فؤاد، حاضر طلابه فى الجامعة مؤيداً النظام الناصرى الشمولى العسكرى، وهاجم النظام الليبرالى الرأسمالى الذى أخذ يطل على مصر من جديد، وقال إن النظام الاشتراكى: "يحاول أن يكفل للإنسان حرية حقيقية، تنبع من الجذور، لا حرية تطفو على السطح. وهو حين لا يترك لشخص واحد أو مجموعة من الأشخاص حرية التحكم فى وسائل الإنتاج (بالتأميم والمصادرة الشيوعية) يضمن بذلك تحرر الجماهير العريضة من طغيان رأس المال ويرسى الأساس الحقيقى لسائر أنواع الحريات". (١)

ثم يشن حملة ضارية على الحريات الليبرالية ويصفها بأبغض الأوصاف فيقول إنها: "مؤذية لمعظم طبقات المجتمع"! وحرية تكوين الأحزاب فى الدول الغربية الكبرى: "أشبه ما تكون بلعبة مسلية تتغير فيها الوجوه دون أن يطرأ على السياسة ذاتها أى تغيير"! (٢)

فهذا موقف واضح تمام الوضوح لكاتب شيوعى مؤيد كل التأييد للنظام الاستبدادى الطاغوتى الذى كان سائداً فى الشرق الشيوعى وفى مصر والدول التى كانت تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى البائد .

(١) الجوانب الفكرية؛ ص ٥٩ .

(٢) نفسه؛ ص ٥٧ - ٥٨ (وانظر كتابى: أساطير المعاصرين؛ نشر دار الحكمة، سنة ١٤٠٩هـ؛

ص ١٠٦ - ١١٣).

وفي يوم ٢٨ / ١٠ / ١٩٩٥ نشرت جريدة الأهرام مقالاً للدكتور فؤاد يطالب فيه بإصدار قانون يحمى الديمقراطية من الإسلاميين الذين يمكن أن يفوزوا بالأغلبية في الانتخابات البرلمانية التي كانت توشك أن تجرى في مصر، كما فاز أقرانهم في الجزائر، ولولا تحالف العسكر مع الغرب الاستعماري لإسقاطهم، لصارت الجزائر دولة إسلامية بحق! فهو يخشى "احتمال" استبداد الإسلاميين، لكنه يرحب ويؤيد من كل قلبه استبداد العسكر الاشتراكيين في العهد الناصري وفي الجزائر! فلا اعتبار عنده للحرريات، بل العداة للإسلاميين. فإذا كان النظام ضد الإسلاميين فهو معه، سواء كان استبدادياً أو عسكرياً. وهو ضد أى نظام يهادن الإسلاميين أو يسمح لهم بحرية العمل والتفكير والتجمع. فهو ليبرالي زائف بكل ما فى الكلمة من معنى!

وفى مقاله المشار إليه يطالب بأشياء مستحيلة. منها تأييد الدستور الحالي خشية تعديله إذا فاز الإسلاميون! ومعروف أن الدساتير فى العالم أجمع يمكن أن تتغير وتتعدّل بألية دستورية معينة. وقد تمّ تعديل الدساتير الأوروبية عشرات المرات، وكذلك الدستور الأمريكى.

وأسخف ما يطالب بتجريمه: "إقحام الدين فى الشعارات الانتخابية". وهذا مطلب مستحيل لأن الشعب المصرى شعب مسلم، والدستور المصرى ينص على أن دين الدولة الرسمى هو الإسلام. وهذا الدستور هو ما يطالب فؤاد زكريا بتأبيده!! وفى غمرة حماسه لهذا القانون - الذى لم يصدر، ولن يصدر، وإذا صدر لن يلقى أدنى احترام!- يزعم بأن من يرفع شعارات دينية يدّع أنه "هو ممثّل الإسلام"! ولم يحدث قط أن زعم مرشح أنه "يمثّل الإسلام"؛ والحاصل أن جماعة الإخوان المسلمين ترفع شعار "الإسلام هو الحل" - يعنى أن تطبيق الإسلام تطبيقاً كاملاً - كفيل بحل المشكلات التى خلفها النظام الاشتراكى، وهو ما يثير الذعر لدى فؤاد زكريا ورفاقه الشيوعيين والاشتراكيين.

ومن المثير للسخرية أن فؤاد زكريا حاول تسويغ موقفه بالقول إن: "طبيعة المبادئ الدينية لا تناقش ولا تقبل النقد والاعتراض. فإذا سُمح لأحد برفع شعارات دينية، فسوف تتعرض تلك المبادئ للنقد والاعتراض. فهو حريص على المبادئ الدينية أن تظلّ مصنونة، كما أنه حريص على صون الديمقراطية! وتلك آراء تنم عن عجز تام

عن فهم الإسلام! فالمبادئ الدينية نُوقِشت، واعترض المخالفون عليها أشد الاعتراضات، وتعرضت للنقد والرفض منذ أن ظهر الإسلام وإلى الآن. وقد سجل القرآن الكريم اعتراضات المشركين العرب بكل أمانة ودقة. من ذلك قولهم الذي أورده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ (سورة ص: ٥) فهم ينكرون مبدأ التوحيد الإسلامى نفسه! وهو المبدأ الذى ينكره الشيوعيون المعاصرون، رفاق الدكتور زكريا فى الداخل وأساتذته فى الخارج! بل هم ينكرون وجود الله - جل جلاله - فى حين أنكر المشركون الجاهليون توحيد الإله وآمنوا بألهة عديدة، ومن ثمة كانوا خيراً من الشيوعيون والماديين المعاصرين!

و الشيوعيون والعلمانيون عامة ينكرون أن تكون للدين الإسلامى صلة بالحياة البشرية، العقلية والفكرية والتشريعية والأخلاقية. ولم يكفوا عن الاعتراض على المطالبة بتطبيق الشريعة، ووصف الإسلام بالماضوية والظلامية والتخلف والتحجر، كما سبق أن رأينا فيما أوردناه من آراء زكى نجيب محمود وفؤاد زكريا، وما سوف نورده من آراء غيرهما.

ثم إن نقد المبادئ الدينية لا يضيرها بشيء، وإنما يكشف عن قوتها وسلامتها وعن زيف المبادئ المخالفة لها. فزعم فؤاد زكريا بأنه بقانونه المقترح ييسر للإسلاميين الحفاظ على قدسية مبادئهم هو زعم باطل. نحن نريد أن ننازل المبادئ المخالفة للإسلام فى حوار أكاديمى جاد. لكنهم يفرون من المعركة ويحتمون بالعسكر الانقلابيين الذين يكتمون أفواه الإسلاميين، ليخلو الجو الثقافى والتربوى والإعلامى لأمثال فؤاد زكريا وحسن حنفى ومحمود أمين العالم وحسين أحمد أمين ورفعت السعيد وبقية الطغمة الشيوعية والعلمانية. فإذا خفت حكومة ما تلك القيود، وجاءت الانتخابات، وترددت أصوات الإسلاميين فى الأجواء، أصيب فؤاد زكريا وأقرانه بالذعر، وهبوا ينادون بحماية الديمقراطية بقوانين من قبيل قانون الدكتور فؤاد زكريا!!

موقفه من قضية العفة الجنسية:

إن قضية العفة الجنسية هى إحدى المشكلات الكبرى بيننا وبين أوروبا وأمريكا. وهى مثارة بقوة على المستوى العالمى كما حدث فى مؤتمر بكين، بعد أن "طُرحت فى مؤتمر السكان بالقاهرة. وهناك قوى جبارة تسعى إلى استصدار توصيات تبيح الزنا

واللواط والسحاق، وكل الممارسات الجنسية خارج إطار الزواج. وهنا قد نتساءل: هل ستفرض علينا هذه التوصيات؟ وكيف؟ وما موقف الدكتور فؤاد من ذلك؟

وجواباً على هذا السؤال أقول: إن تلك التوصيات لن تفرض علينا بالقوة غداً أو بعد غد، وإنما ستبذل جهود متواصلة لإعداد شعوبنا المسلمة لتبذ العفة الجنسية أولاً، ثم يجيء التشريع بعد ذلك ليقتن الواقع. وفي هذه الأثناء، سوف تستخدم الوثائق الدولية، ومنها توصيات بكين، للتنديد بالإسلام، وأخلاقيات العفة، والزواج التقليدي. ولأن أوروبا استباححت الزنا منذ أمد بعيد، فإن المعجبين بها من أبناء المسلمين لم يدخروا وسعاً في نقد العفة الجنسية والشريعة الإسلامية التي تفرضها. وسوف أعرض هنا لآراء الدكتور فؤاد زكريا، وأناقشها بموضوعية، لنرى كيف جرت المحاولات لإعداد جيل من أبنائنا يقبل التخلي عنها، وإحلال "الانقلابات" محلها!

ويعيب الدكتور فؤاد زكريا على المجتمع المسلم نظرتَه إلى الأخلاق التي: "تجعل للسلوك الجنسي مكانة رئيسية! إن هذا السلوك في نظر الإنسان المسلم - العادي - يكاد يكون مرادفاً للأخلاق. فالأخلاق الصحيحة - تعنى قبل كل شيء - "العفة الجنسية". وهو يريد من رجل الدين أن يدع قضية العفة جانباً، أو يقلل من اهتمامه بها". وأن يتخذ مواقف واضحة في أمور مثل استغلال النفوذ والمضاربة والتهرب من الضرائب، وجمع الثروات الفاحشة بلا مجهود؛ وهو يسمى هذه الأمور "الجانب الاجتماعي العام" من سلوك الناس".^(١)

ولكن الدكتور فؤاد لم يذكر لنا كيف عرف أن المجتمع المسلم ينظر تلك النظرة إلى السلوك الجنسي!

فهو لم يجر بحثاً علمياً يؤيد دعواه. ولا نقل عن عالم شيئاً يؤيدها. وكان عليه أن يجرى "استبانة" علمية منهجية أو يستشهد بنتائج "استبانة" أجراها غيره، لكنه لم يفعل!

وعلى هذا يفقد كلامه كل قيمة علمية. ولا يشفع له لقبه العلمي، ولا مركزه الجامعي؛ بل هما يضاعفان من مسؤوليته، ويعظمان إدانته!

(١) راجع كتابه: الصحوة الإسلامية؛ ص ١٤٤.

إن الدكتور فؤاد زكريا بهذا الكلام الطائش لا يعبر إلا عن هوى نفسه وخصام قلبه لكل ما هو إسلامي، لا عن علم ولا معرفة!

والخطيئة العلمية الثانية في كلام الدكتور فؤاد هي توهمه أن "المجتمع الإسلامي" هو الذي يقرر نظراته إلى السلوك الجنسي! كأن المجتمع الإسلامي مجتمع علماني يسير في نظراته بحسب شهواته! إن المجتمع المسلم، كما يعلم الصغير والكبير، ملتزم بحكم دينه، بنظرة شرعية، إلى السلوك الجنسي وعلاقة الذكر والأنثى بعامة - نظرة يفرضها القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة؛ وليس بوسع المجتمع كله ولا أى فرد من أفرادها أن يغير شيئاً في هذه النظرة. فالزواج بشروطه الشرعية هو الطريق الوحيد لاتصال الرجال والنساء؛ والقرآن هو الذى حرم النظرة، وأمر بغض البصر.

والنبي الكريم ﷺ هو الذى نهى عن الخلوة بين الرجل والمرأة الغريبة، وهو الذى نهى عن الاختلاط السائب، وشرع الإسلام شرائع لزينة النساء وملابسهن؛ إلى آخر ما هو معروف من هذه الشرائع العظيمة الثابتة.

وهذا الثبات المطلق لشرائع الإسلام هو الذى حاول الدكتور فؤاد أن ينكره ناقلاً - دون تحوير - كلام المستشرق المشهور "جرينباوم" الذى زعم أن الإسلام يمكن أن "يساير أى نظام، وأن يتشكل بحسب رغبة المجتمع، أو شهوة الحاكم" ! وهنا نواجه جانباً من شريعتنا الخالدة، يُظهر بكل وضوح سقوط هذا النقد الجهول الذى تقياه مستشرق موتور، وردده الدكتور فؤاد دون وعى أو تمحيص، ظاناً أنه به يوجه نقداً للإسلام لا نقض له! فهو كلام مستشرق كبير، هو عند الدكتور فؤاد فوق الخطأ والنقد!؟

ثم وجه الدكتور فؤاد علماء الإسلام الوجهة الاجتماعية الصائبة التى يرى هو أنها أجدر من أخلاقيات العفة بالاهتمام! وهى أمور اقتصادية، ومظاهر فساد فى المجتمع العلماني، ويبدو أن الدكتور فؤاد يجهل شريعة الإسلام وأخلاقياته التى توجه العلماء والتى تُدين غضب الأموال وسرقتها، بالختاتلة، أو بالقوة أو التأميم والمصادرة الظالمة. ولو عرف حرص الإسلام على تنقية الأموال من الحرام، وإنفاقها فى الحلال لانعقد لسانه دهشة! وليس هذا فحسب، وإنما هناك الواجبات الإيجابية التى تفرض ضرورياً من البذل والعطاء والتضحية للقضاء على كل مظاهر العوز والحاجة!

وأخلاق الإسلام كلها تقوم على العطاء بلا مقابل ولا يجوز وصف عمل بأنه أخلاقي إلا إذا اتسم بهذه الخاصية الجوهرية (أعنى أن يكون نوعاً من العطاء بلا مقابل).

وما العفة الجنسية إلا فضيلة "سالبة"، أو هي فضيلة صيانة للنفس وكف للشهوات؛ وموقعها على سلم القيم الأخلاقية متواضع جداً. وهذه المبادئ هي التي تحدد واجبات العلماء لا الدكتور فؤاد!

إن الدكتور فؤاد كاتب ماركسي، آمن بالشيوعية، ودعا إلى الاشتراكية على مضض، في العهد الاشتراكي، على أمل أن تتطور الأمور إلى إعلان الشيوعية في مصر. وهل مصر أقل من اليمن الجنوبي - وقتها - الذي طبق الشيوعية في الجزيرة العربية مهد الإسلام وقاعدته الأساسية؟ لكن الأمور سارت في وجهة لم يكن يشتهيها، فاندثرت الشيوعية، وطمست معالمها، حتى في الصين التي مازالت تتمسك نظرياً بالشيوعية، وتطبق الرأسمالية في الواقع. وانتهت الشيوعية في اليمن إلى مصير اليم.

ولهذا كان الدكتور فؤاد حريصاً جداً على حقوق "البروليتاريا" وعلى التصدي للمستغلين من أصحاب الأعمال؛ ويريد من علماء الإسلام أن يُدينوهم بالقوة نفسها التي يُدينون بها الزناة، وأن يكافحوا التاجر الذي يُضارب في أقوات الناس بقوة لا تقل عن مكافحتهم للملابس المرأة القصيرة. (١)

ولا ريب أن من واجب العلماء أن يدينوا المظالم الاجتماعية كلها وأن يقاوموها؛ فالظلم محرم تحريماً باتاً في الإسلام، ولا يجوز اقترافه في أية ظروف استثنائية؛ والعلماء مطالبون بمقاومته وإدانته؛ وهم يقومون بهذا الواجب كل بحسب إمكاناته، ولا يمكن أن ننكر دورهم الفعال في إقامة العدل الذي أرسل الله تعالى رسله لإقامته.

وفي ذلك يقول جل جلاله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥). وتقصير بعضهم في هذا الواجب

(١) انظر كتابه: الصوحة الإسلامية: ص ١٤٥.

خطأ؛ لكنه لا يسوغ إنكار جهادهم التاريخي، في كل العصور، ضد الظلمة والفسادين. والإسلام هو الذي يوجب عليهم ذلك، لا كلمات الدكتور فؤاد.

أما شدة إدانة الزنا، وإدانة كل انتهاك للتدابير الوقائية ضده، فترجع أساساً إلى شدة إدانة الكتاب والسنة له؛ وهذا هو ما يبدو أن الدكتور فؤاد يجهله كلية. وبالإضافة إلى ذلك، اشتدت إدانة المسلمين للزنا في مواجهة استباحة العلمانيين له، ودعوتهم المتواصلة لتهديم التدابير الوقائية كالأحتشام، وتحريم الخلوة؛ ولقد بلغت استباحتهم حد الفجور حين أعلن الدكتور حسن حنفي، توأم الدكتور فؤاد، أنه يحسد الأوروبيين على ما عندهم من الحريات الجنسية! هذه الاستباحة أشعلت المقاومة الإسلامية، صيانة للمجتمع من التردى في مهاوى الاستباحة، كما حدث في أوروبا وأمريكا؛ وصيانة للأمة من نتائج الاستباحة التي يجار الأوربيون والأمريكيون بالشكوى منها؛ فهي التي نشرت "الإيدز" (طاعون العصر). وهي التي فرخت الملايين من أبناء السفاح؛ ومن هؤلاء خرج الألوفا من عتاة المجرمين! وهذه الاستباحة هي التي تهدد مكانة أمريكا القيادية في العالم اليوم، كما يبين ذلك بوضوح "برجنسكى" مستشار الأمن القومي للرئيس الأمريكى الأسبق فى كتابه "الانفلات".

هذه الحقائق الثابتة تبدو غائبة عن الدكتور فؤاد، وتوأمه حسن حنفي، حين كتبنا عن العفة الجنسية. فيقول الدكتور فؤاد - مثلاً - : "إن الجنس بطبيعته فردى، لا يؤثر إلا فى فرد بعينه من حيث علاقته بفرد آخر، أو بمجموعة ضيقة من الأفراد". (١) وهذا الكلام خطأ جسيم ويكفى أن نتذكر أن أعداد أبناء السفاح تصاعدت فى المجتمعات المتحللة من قواعد الزواج والعفة، حتى بلغت أكثر من خمسين فى المائة من المواليد!! وهؤلاء الأولاد البؤساء يحرمون من حياة الأسرة الحاضنة الطبيعية، ومن دفة العواطف الأبوية، وربما من عواطف الأمومة أيضاً، حين تقذف الأم بوليدها فى مؤسسة ما لرعايته. فمعظم حقوق الطفل تقريباً يحرم منها أولئك المنكوبون. ويكفى أن نتذكر أن العلاقات الإباحية هي السبب فى انتشار مرض الإيدز بنسبة ٨٣٪! أفبعد هذا يمكن أن نقبل زعماً يقول إن الجنس بطبيعته فردى لا يؤثر إلا فى فرد كما قال الدكتور فؤاد!؟

(١) راجع كتابه: آراء نقدية؛ ص ١٧٧.

إن شدة إدانة الإسلام للزنا بوصفه فاحشة، كما جاهد في نقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ٣٣)) معجزة إسلامية بحق، وشدة العلماء في معارضة «واجب وفرض» خصوصاً في مواجهة العلمانيين الذين يروجون للاستباحة الجنسية الانحلالية، والعلماء المسلمون يقدمون المشهورين المسلمين - عملاً وفلاحين وأصحاب أعمال - ومنهينين وحكاماً - أعظم خدمة، وحماية، وصيانة، ضد الفحشاء وسبيلها السيئ، وفتاتها المدمرة. وهذا للأسف لم يخطر ببال الدكتور غفوان، حين تناول قضية العنف الجنسية في المجتمع المسلم من وجهة نظره العلمانية.

وأما الحرم على حقوقي الطبقة العاملة فشاننا نحن المسلمين ألا شان الشيوعيين الذين أذقوا الطبقات العاملة أسمى مرارات الحرمان والتظلم والبطش والكبت، حتى انهارت مجتمعاتهم فوق رؤوسهم. وكان حظ الأعراف الفلاحيين خيراً من حظ الأحياء الباقين.

كيف يفسر الدكتور غفوان اهتمام المسلمين بالعنف الجنسية؟

إنه يعتقد هذا الاهتمام، كما ذكرنا، ويرفض شريعة الحجاب، وشريعة منع المخلوة، ونفصل الطلبة عن الطالبات في المدارس والجامعات، ويقرر أن الاهتمام بهذه: "الأمور الشكلية" أمر غير مفهوم. (١) ثم يفسر الموقف الإسلامي بقوله: "من المؤكد أن أي محلل نفسي قادر على أن يكتشف الكثير من العقدة وراء هذا التصور المبالغ فيه لدور الجنس في حياة الإنسان". (٢)

فالرجل لا يفهم لماذا الحجاب، لأنه لم يعلم أن القرآن الكريم يفرضه بقول الله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَصْلَابِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ غَيْرُوهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْحَكْنَ بَعْضُهُنَّ إِلَى بَعْضِهِنَّ﴾ (النور: ٣١)) ويجهل أن رسول الله ﷺ قد نهى عن خلوة المرأة المسلمة بلى رجل أجنبي عنها، أي ليس بحرم، في أكثر من حديث صحيح. ولو علم بهذه الشرائع الإسلامية، لما قلل إنفاذها غير مفهومة، أو أنها أمور شكلية. ولن نعيب هنا ما ذكرناه عن أهمية وحيوية العنف

(٢) نفسه، ص ٣١.

(١) المعجزة الإسلامية، ص ٢٠٠.

الجنسية، وكل التدابير الوقائية التي شرعها الإسلام حتى لا يقترب المسلم من الزنا مجرد اقتراب .

غير أن وصفه للشريعة الإسلامية بأنها تعبير عن "عقد نفسية" يستحق وقفة متأنية. وأول ما نلاحظه في كلام الدكتور فؤاد هو نزعته غير العلمية إلى التوكيد والقطع في أحكام لا تحتل ذلك. فهو يبدأ جملة بقوله: "من المؤكد!" وماذا يؤكد؟.. إنه يؤكد احتمال أن أى محلل نفساني قادر على أن يكشف الكثير من "العقد"! فهو نفسه لم يكشف شيئاً، ولم يبحث في شيء، ولا هو وصل إلى ظن ولا يقين. وهو لم يلجأ إلى محلل نفساني، ولم يقتبس رأى محلل نفساني في المسألة. فما الذي يؤكدُه إذن؟! لا شيء في الحقيقة سوى هوى في نفسه وتحيزاته غير العلمية.

ومصطلح "العقد" مصطلح نفساني، والدكتور فؤاد يوهم القارئ أنه يستخدمه في موضعه الصحيح، في حين أنه يستعمله استعمالاً طائشاً، كاستعمال العوام! إن لفظ "عقدة" هو من مخلفات "فرويد" ومدرسته السيكلوجية، مدرسة التحليل النفسي. وقد كان "فرويد" يستعمله في وصف المرض النفسي لمريض فرد ولم ينتقل به من المستوى الفردي إلى مجالات العلوم الاجتماعية لتطبيقه على المستوى الجمعي. لكن الدكتور فؤاد يعتبر الأمة المسلمة المتدينة شخصاً عُصابياً واحداً، كأى مريض عُصابي في عيادة "فرويد" ويطبق عليها مصطلح "العقدة" السيكلوجي. وليس لدى الدكتور فؤاد أية مسوغات لهذا العمل، فليس هناك عالم نفسي فعل هذا، ولا هو قدم المسوغات العلمية التي تُبيح له ذلك، لذلك قلت إنه استخدام "عامي" للمصطلح، يريد لأمتنا المسلمة أن ترقد على "كعبة" فرويد البالية!

وقد يقال إن الدكتور فؤاد أراد بذلك شرح كيفية ظهور هذه الشريعة التي تبالغ في تقدير دور الجنس، حسب زعمه.

وقد يقال إنه يقصد أن رسول الله ﷺ (الفرد) هو الذي وضع الشريعة. وهو الذي ألف القرآن، وأن الاتهامات بـ"العقد" موجهة إليه ﷺ. والحق أن كلام فؤاد زكريا في مجموع كتاباته يشهد "بإمكان" هذا التفسير المنكر للنبوة، وللدين تبعاً لذلك. لكن يظل كلامه المحدد الذي اقتبسناه عنه بخصوص العفة الجنسية قاصراً عن

أن " يؤكد " هذا أو يرجحه، وبوسعنا أن ينكر هذا التفسير، وعندئذ لا بد أن يتحمل تبعه التفسير الأول، أعني النقل غير العلمي لمصطلح "العقد" من المستوى الفردي السيكولوجي، إلى المستوى الجمعي. وتلك خطيئة كبرى من أستاذ كبير كان ذات يوم رئيساً لقسم الفلسفة بجامعة عين شمس، ومستشاراً ثقافياً لدولة الكويت، وحاملاً لقب "المفكر العربي"!

ولقد حاول فؤاد زكريا في كتابه عن الصحوة الإسلامية مرة أخرى أن يفسر موقف الإسلام من العفة الجنسية فرده إلى: "ازدواجية الحرمان من الجنس الآخر، وتحريمه؛ والرغبة العارمة في الجنس مستترة وراء قناع من "العفة المتطرفة"، ووصف نظرات المسلمين إلى النساء بأنها "نظرات جائعة" في أغلب الأحيان، والحجاب يُضفي على المرأة ضماناً ترضى غرور الرجل الشرقي، وتهديء مخاوفه الدائمة وعدم ثقته الأزلية في الجنس الآخر". (١)

وكلام الدكتور فؤاد زكريا هنا هو مجرد تعبير عن آرائه هو، أعني أنه ليس تفسيراً علمياً يستند إلى منهج بحثي معترف به، أو إلى تجارب، أو إحصاءات أو "استبيانات". ولذلك يعجز عن مساندته عجزاً مُشِيناً إذا قلنا له - مثلاً - أين الدليل؟! فلا دليل لديه من أي نوع؛ ولا وثيقة لكلامه، ولا قيمة تبعاً لذلك. وهذه دون ريب كارثة علمية، لأن فؤاد زكريا ليس كاتباً مبتدئاً، ولا هو طالب في مرحلة الماجستير أو الدكتوراه حتى يرتكب هذه الخطيئة!

وعلى الرغم من هذا سوف أحاول أن أبين في إيجاز مقدار الخطأ في آرائه. فالمسلمون لا يعانون من الحرمان الجنسي، ولا يحرمون الجنس لا على مستوى المرجعية ولا على مستوى الواقع. والقرآن الكريم يحث على الزواج، ويسمح تعدد الزوجات وكذلك فعل النبي الكريم ﷺ.

أخطاء علمية وانحرافات فكرية:

قرر الدكتور فؤاد زكريا أن لدى المسلمين رغبة جنسية عارمة، ليست لدى سواهم من البشر، دون أن يقدم أي دليل من أي نوع على صحة هذا الزعم. وما كان

(١) الصحوة الإسلامية؛ ص ٢٢.

له بحال أن يجد دليلاً، والرغبة الجنسية فطرة عامة بين البشر، والمسلمون العرب والأتراك والهنود بشر من البشر، لديهم الرغبة الجنسية كما لدى غيرهم. وهذه بدهية لا يسع أحد أن يناطحها مهما أوتى من قدرة على المراوغة والمغالطة والتضليل.

والإسلام يعتبر قوة الرغبة الجنسية فتوة، ودليل كمال في الخلق، لا دليل خلل أو نقص أو عيب. وقد كان النبي الكريم ﷺ كامل الخلق والخلق، وكان يتمتع بقوة جنسية فائقة، وقد قالها صريحة واضحة: "حُبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وجُعِلت قرة عيني في الصلاة" (أخرجه النسائي وأحمد).

إن حديث الأستاذ عن "الرغبة العارمة في الجنس"، وعن "النظرات الجائعة" باعتبارها خصيصة للمسلمين دون سواهم هو إذن حديث خرافة. إنه يتحدث عن المجتمع الراهن حيث تخرج المرأة شبه عارية، وحيث لا يجد الشباب سبيلاً للزواج، وحيث يعاني بعض الشباب - في شرائح معينة من المجتمع - من الحرمان، ويتورطون - من ثم - في النظر إلى النساء، وليس هذا هو المجتمع الإسلامي الملتزم بالشريعة التزاماً كاملاً شاملاً، بل هو المجتمع العلماني الذي يحاول أن يتستر على عوراته بأوراق توت إسلامية. وبذلك يشكل نماذج شائثة مضطربة، منقسمة على نفسها، من المجتمعات.

ويظن الدكتور فؤاد زكريا أن الرجل الشرقي المغرور، الشكاك هو الذي فرض الحجاب على النساء، ومضمون كلامه يدل على أن الرجل الغربي، الأوربي، هو المثل الأعلى الذي يجب احتذاؤه، إنه الرجل الذي يرى أمه أو أخته أو زوجته تمارس الزنا أو البغاء ولا يثور، ولا يلوم! والمجتمع الأوربي هو المثالي بحق، ففيه - مثلاً - ٤٩٪ من الزوجات الألمانيات يخزن أزواجهن، وفيه أيضاً ٩٨٪ من نساء كندا يتعرضن للاغتصاب. (ولم ينظر إليهن الرجال الأوربيون المهذبون الذين اغتصبوهن نظرات جائعات مثل المسلمين الأشرار!) وفيه زادت معدلات الاغتصاب ٥٩٪ سنة ١٩٩١ في أمريكا. وللعلم، هذه كلها إحصائيات رسمية، لا مجرد آراء وتحيزات، كما هي الحال في كتابات الدكتور فؤاد زكريا، أما في مجتمعاتنا الإسلامية الملتزمة جزئياً فقط فالخيانة شذوذ، والاعتصاب استثناء، والبغاء محرم والزنا جريمة.

الإسلام لا يدعو إلى الحرمان الجنسي:

وفى تفسير ثالث لاهتمام المسلمين بصون العفة كفضيلة أخلاقية مهمة، قال الدكتور فؤاد زكريا إنه يرجع إلى: "فسوة الحرمان، وصرامة القيود التي يفرضها المجتمع الشرقي" وهذا تكرار لما سبق من أخطائه، فلا حرمان من الإشباع الجنسي في الإسلام، ولا تبتل ولا رهينة. والزواج، في المجتمع المسلم الذي يطبق شريعة الله تطبيقاً كاملاً شاملاً، ميسور للغنى والفقير. وكلام الأستاذ هنا لا يصح إلا على بعض شرائح من المجتمع المصرى الراهن، الذى هو "هجين" مركب، متنافر من عناصر إسلامية وعناصر أوروبية، الأمر الذى أدى إلى تأخير الزواج إلى سن الثلاثين وما بعد الثلاثين لنسبة كبيرة من الرجال والنساء. وكانت مشكلات الإسكان، وتدنى مستوى المعيشة هي الأسباب الأساسية لذلك؛ ولا دخل لشرائح الزواج وأخلاقيات العفة وتقاليد المجتمع الشرقى فى ذلك؛ بل إن تأخير الزواج يتنافى مع هذه الشرائح والأخلاقيات والتقاليد. وهكذا نرى أن النظم العلمانية، والاشتراكية خاصة، التى طبقت فى بلادنا، هي سبب مظاهر الحرمان من الزواج التى أراد فؤاد زكريا أن يلصقها بالمجتمع المسلم ظلماً وبهتاناً. وأما القيود التى أشار إليها فهى قيود على الزنا، لا على الإشباع الجنسي المشروع، وهى ليست قيوداً، بل تدابير وقائية تفتح كل الأبواب للإشباع الحلال وتغلق كل الأبواب فى وجه الفحشاء. وهذا هو ما يغيب العلمانيين الذين يحسدون الأوربيين على ما عندهم من استباحة جنسية، ويحاولون استيرادها لبلادنا المسلمة، بعد تحطيم شرائح الزواج وأخلاقيات الشرف والطهارة.

ونلاحظ مرة أخرى أن فؤاد زكريا يجهل، أو يتجاهل أن "القيود" على الفحشاء هي من إملاء الكتاب والسنة، لا من فرض المجتمع الشرقى، اللهم إلا أن يكون قصده أن القرآن والسنة من إملاء المجتمع الجاهلى - أو بصراحة تامة، وكما ذكرنا سلفاً - أن النبى الكريم ﷺ هو الذى ألف القرآن! وتلك فريضة ردها الجاهليون العرب وقالوا - كما سجل القرآن الكريم -: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٥) ثم زخرفها المستشرقون بحواشى من علم النفس الحديث، وعلم الاجتماع والإنسان، ثم ردها العلمانيون وراءهم كالبيغاوات.

ونمضى مع تفسيرات الدكتور فؤاد زكريا فنجد أنه يقرر أن شرائح الزواج والعفة،

الصارمة، تعبر عن شدة حب المسلمين للجنس؛ "ومن المعروف أن الإنسان كثيراً ما يميل إلى تحريم أحب الأشياء إلى نفسه، أو على الأقل فرض قيود شديدة عليها" ويقول: "وكثير من المتزمتين لا يبدوون هذه الصرامة إلا لأنهم محرومون، بحيث تكون قسوتهم وصرامتهم مجرد مظهر سلبي للرجبة العارمة في ارتكاب كل ما يحرمونه على الغير".^(١)

ومرة أخرى، نقابل الخرافة التي يروج لها فؤاد زكريا، والتي تقول إن المسلمين من العرب والأتراك والأمريكيين والأوروبيين، يحبون الجنس أكثر من مواطنيهم غير المسلمين، من اليهود والنصارى والبوذيين والملاحدة! وفؤاد زكريا يزعم أن هذه الخرافة "من المعروف" ! ولم يقل لنا إنها معروفة في علم معين كعلوم الإنسان، أو الطب أو علوم الحياة، أو غيرها. فهي إذن خرافة معروفة لفؤاد زكريا وحده، وأما العلم والعلماء، وأما الثقافة والمثقفون، فيعرفون أن الجنس غريزة بشرية، يستوى فيها الناس من كل جنس ودين، مع اختلافات بين الأفراد. وكما قلنا من قبل إن قوتها لدى فرد دليل سلامة وصحة وكمال.

وبعد هذه الخرافة تأتي أختها، وتستند إليها. فنظراً لحب المسلمين الشديد للجنس، كان تحريمهم الشديد له على أنفسهم، لأن الإنسان يميل إلى تحريم أحب الأشياء إلى نفسه! والرجل هنا يغالط نفسه، فالمسلمون لا يحرمون إلا الجنس الحرام، أى الفحشاء بكل ضروبها، أما الجنس الحلال فيحثون على ممارسته من خلال الزواج، ويبيح الإسلام تعدد الزوجات، ويبسر الزواج، ثم إن التحريم والتحليل لله تعالى، لا للإنسان، إلا أن يكون فؤاد زكريا كافراً بالنبوة، كما سبق أن أشرنا، والعبارات تتوالى في كتاباته لترجح ذلك.

ولم يبقَ في كلامه جديد اللهم إلا توهمه الخيالي العجيب أن بعض المسلمين محرومون من الجنس، ولديهم رغبة عارمة فيه، وفي ارتكاب الفحشاء التي يحرمونها على غيرهم! فهذا هنا خلط فظيع. فمن يا ترى أولئك المحرومون من الجنس من المسلمين؟ ولماذا؟ أهو حرمان بسبب التبطل والرهينة، أو الفقر؟ وكيف لمثل هؤلاء المحرومين أن يحرموا "الجنس" الذي أحله الله تعالى؟! إننا هنا بإزاء كائنات خرافية

(١) آراء نقدية؛ ص ١٧٦ .

كالغول والعنقاء، كان الرجل يؤلف حدوتة أو أسطورة أو كانه أسير لثورة من الغضب عاتية ملكت عليه قواه الفكرية، فراح يتوهم هذه المخلوقات! ولقد يرجع ذلك إلى المرات التي تملأ أفواه العلمانيين من فشل جهودهم على امتداد مائتي عام لطمس شخصية مصر الإسلامية، وإحلال الثقافة العلمانية محل الثقافة الإسلامية. ويضاف إلى ذلك فشل الشيوعية بالنسبة للدكتور فؤاد زكريا وتبيد أمل في نشرها في مصر، "شاءت الأمة المسلمة أم أبت!" الأمر الذي بدد معظم جهوده وكتابات واضطره إلى أن يلتحق بالمعسكر الليبرالي الأمريكي الذي طالما هاجمه وشنع عليه وتنبأ باندهاره واندثاره؛ وذلك عبء نفسي مهول تنوء به الجبال.

وهكذا وجدنا نقده للعفة الإسلامية خليطاً من الأخطاء والأوهام والخرافات التي لا تنتسب إلى النقد ولا إلى العلم بأية وشائج.

موقفه من المعجزات :

ثم نتقل إلى موقفه من المعجزات، فنسأل: هل الإيمان بالله تعالى الخالق المدبر يتعارض مع مبدأ السببية الذي يحكم الظواهر الطبيعية والاجتماعية؟ وهل الإيمان بأن الله تعالى أعطى الأنبياء معجزات خارقة لمبدأ السببية، هو تفكير أسطوري؟ وهل الإعلام الغربي لا يهاجم الإسلام إلا لأنه يعلم المسلمين عدم الثقة في مبدأ السببية. وإذا نحن تبنا ورجعنا إلى الإيمان المطلق بالسببية، هل سيكف الإعلام الغربي عن مهاجمتنا؟

هذه الأسئلة يثيرها الدكتور فؤاد زكريا في رسالته التي نشرها "رجب البنا" ضمن مقاله في الأهرام يوم ٣٠/١/١٩٩٤ عن "الإسلام والإعلام". وكنت أتمنى أن يكون كلام الدكتور فؤاد زكريا أكثر وضوحاً وتحديداً، ولكنه للأسف أطلق كلامه وجزاه، لكي يفلت من النقد! وهذا الأسلوب تعلمه من الفيلسوف اليهودي المرتد "اسبينوزا" وهو أسلوب المراوغة في طرح الأفكار المضادة لعقيدة المجتمع! ومن المؤسف أن جريدة الأهرام ترفض نشر التعقيبات على مقالات كبار الكتاب العلمانيين لكي يستقر التشكيك في عقول القراء، ويظل الكاتب العلماني في نظرهم مصدراً للحقائق العلمية التي تعلو على كل نقد، وتبرأ من كل خطأ. والحق أن كلام الدكتور

فؤاد زكريا فى المسائل الإسلامية عامر بالأخطاء؛ وهذه الرسالة نموذج لكتاباتة حول الإسلام وقضاياها، وصدق المثل القائل: قتلت أرض جاهلها!

فليس فى العقائد الإسلامية أى تشكيك فى مبدأ السببية. والقرآن الكريم يؤكد وجود القوانين، أو "السنن" الحاكمة للظواهر الاجتماعية، وليس الطبيعية فقط، وذلك هو تدبير العليم الحكيم، وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى فى شأن ظاهرة الصدام بين كل دين جديد وبين أنصار القديم من المشركين والمنافقين: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢) فتلك ظاهرة اجتماعية إنسانية ولها قانون ينظمها. وكما انتصر التوحيد من قبل سوف ينتصر دائماً، ولن يتبدل القانون، لأنه مطرد وصارم.

ويستنكر القرآن الكريم موقف المشركين الذين ظنوا أن من الممكن أن تتبدل قوانين الاجتماع الإنسانى فينتصر شركهم على التوحيد فيقول جل شأنه: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣).

ولولا هذه الآيات الواضحات الحاسمات التى تقرر بكل وضوح خضوع الظواهر الاجتماعية لسنن الله المطردة، لما استطاع ابن خلدون أن ينشئ "علم العمران" أو "علم الاجتماع". ولقد كرر الآيات السابقة ثلاث عشرة مرة فى مقدمته! الأمر الذى يقطع قطعاً لا مدخل فيه لاية شكوك بأنه نقل نقلاً فكرة قلفونية الظواهر الاجتماعية عن القرآن الكريم. وفضلاً عن ذلك اقتبس ابن خلدون قانون قيام الدول، وقوانين التجمع البشرى وكذلك قوانين انهيار المجتمعات، من القرآن الكريم، فكيف يزعم الدكتور فؤاد زكريا أن هناك عدم ثقة فى مبدأ السببية فى الإسلام أو عند المسلمين؟

ووقوع المعجزات والخوارق على أيدي الأنبياء لا يمس مبدأ السببية. فالمعجزات ليست نظاماً بل هى استثناءات يجريها الخالق المدبر على أيدي الأنبياء كأدلة على صدقهم، والنبى الكريم ﷺ الذى أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فى معجزة خارقة للسببية، لم يسافر بعدها إلا على جمل أو حصان، أو سيراً على الأقدام،

وكان يسعى كما يسمى سائر خلق الله لكسب الرزق، وكان يقا تل بيده، و بجنوده، ويسأل الله النصر فيمذه بالملائكة، ولم يجلس فى بيته ويسأل الله أن يرزقه عن طريق الخوارق. وقد طلب إليه المشركون أن يفجر لهم ينبوع فى مكة، أو يكون له بيت من ذهب، أو يلتقى إليه كثر عن طريق الخوارق، فعلمه ربه أن: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣).

ومن جهة أخرى، السببية لا تنفى إيمان المسلمين بالمشيئة الإلهية المطلقة، فالله تعالى هو الذى خلق الوجود كله وهو الذى يديره، وهو الذى أراد له أن يسير بحسب سنن، وهو الذى أراد خرق تلك السنن فى حالات معينة والحظات محددة، وهو الذى يقدر الأرزاق والآجال وكل ما يصيب الإنسان من خير أو شر. وهذا كله لا يتعارض بحال من الأحوال مع إيمان المسلمين بالسببية واحترامهم لها، ولذلك نشأ العلم التجريبي والمنهج التجريبي فى أحضانهم.

ونحن نعلم يقيناً أن الإعلام الغربى لن يكف عن هجماته على الإسلام والمسلمين إلا إذا تركوا الإسلام واعتنقوا الفلسفة المادية الملحدة، وتبعاً لذلك يفقدون استقلالهم الفكرى وهويتهم المتميزة، ويصبحون ذيو لاً للغرب، تابعين خانعين له كالهنود الحمراء! وبذلك يستمر استغلال الغرب لنا مادياً، وتتواصل هيمنته على بلادنا إلى أجل غير مسمى. هذه هى الحقائق، وتلك هى الافتراءات، وللناس عقول تفهم وتدر ك وتقدر، وتميز بين الحقائق والافتراءات.

أسلوبه فى الحوار:

وبعد هذا كله أتساءل: ماذا يعرف الناس عن الدكتور فؤاد زكريا وأسلوبه فى الحوار وطريقته فى الجدل؟

من المفيد أن نجيب على هذا السؤال من خلال دراسة كتبه ومقالاته. ولسوف يفاجأ القراء، حين يعلمون حقيقة الرجل. ولسوف يدهشون حين يرون أن كتابات الدكتور فؤاد زكريا بصفة عامة سلسلة من الأخطاء والأحكام السابقة، والمجازفات!

إننا إذا فحصنا "منهجه" واجهتنا منذ البداية، مناقص عديدة، لا يتصور أن يتعاطاها أستاذ فى الفلسفة. وأول تلك المناقص، وإن لم تكن أخطرها أو أهمها، البناء على مقدمات باطلة.

وتبعاً لذلك تجيء النتائج وقد اخترمها البطلان من أساسها ذاته!
خذ مثلاً: حديثه عن شخصيتنا المصرية. إنه يقرر أن "سمة الحزن من السمات
المميزة للشخصية الشعبية"، ثم إنه يصف تقريره هذا بأنه "حقيقة علمية".^(١)
فما هي المقدمة التي بنى عليها تقريره، أو "حقيقته العلمية"؟
إنها مقدمة تقول إن: "ألحان الناي حزينة. والناى آلة موسيقية مصرية شعبية،
فلا بد أن تتسم الشخصية المصرية بطابع الحزن بتأثير الناي وألحانه الحزينة!
ولكن، هل ألحان الناي حزينة حقاً، ودائماً؟ ألا يؤدي الناي أحياناً مرحلة،
مبهجة، راقصة؟ وهل الناي هو الآلة الموسيقية الوحيدة المنتشرة بين الشعب؟
فالباطل اخترم مقدمته من ناحيتين:

الأولى: افتراضه الوهمي أن كل ألحان الناي حزينة، وهي ليست كذلك.
الثانية: تغافله عن تعدد الآلات الموسيقية الشعبية في مصر.

ويقول الموسيقيون من أهل الصناعة أن الموسيقى المصرية الشعبية، وهي
موسيقى عربية شرقية، يغلب عليها الطابع اللحني، والإيقاع، وهي تُعزف في الأفراح
والأعياد والمناسبات السعيدة. فهل تُعزف الألحان الحزينة في هذه المناسبات؟ وهل
الضحيج العنيف الذي نسمعه في أفراحنا وأعيادنا يعبر عن سمة حزينة في
شخصيتنا؟! ومتى يحب المصري من أبناء الشعب أن يستمع إلى الموسيقى والغناء؟
أحبها في الجنائز والمآتم؟! وهل عندنا موسيقى جنائزية شعبية في مصر؟!
وما السمات القومية الأخرى التي يمكن أن يثبتها الدكتور فؤاد زكريا استناداً إلى:
الطبل البلدي والنقرزان والمزمار والأرغول والربابة؟! لماذا اكتفى بالناى دون سائر
الآلات الشعبية؟!

أسئلة كثيرة لا بد أن تثور، ولكن فؤاد زكريا الذي لا يحترم المنطق ولا يعرف
المنهج، غض طرفه عنها، لكى ينتهي بنا (من مقدمته الباطلة) إلى نتيجته الزائفة،
التي يسميها "حقيقة علمية"!!

(١) آراء نقدية: ص ١٦٦-١٦٧.

وهناك مثال آخر، لمقدمة باطللة أخرى، شيد فوقها نتيجة خاطئة .

فيقول أستاذ الفلسفة: "إن التفاخر بالأصل والحسب صفة مميزة لشعوب هذه المنطقة من العالم". أي العالم العربي والإسلامي. (١)

ولا أحد ينكر شيوع عادة التفاخر بالأصل والحسب. ولكننا ننكر أنه يشكل خاصية مميزة للشخصية العربية أو الإسلامية. إن التفاخر نقيصة خلقية، أداها القرآن الكريم، وأدانتها السنة النبوية، إنها كتعاطى الحشيش، فهل تدخين الحشيش يسوغ القول بأنه خاصية مميزة لشعوب العالم العربي؟!

إن شخصيتنا السوية تُدين التفاخر بالأصل والحسب ونعده من آثار الجاهلية. وكتاب ربنا يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. ورسولنا ﷺ يقول: "لَيْدَعَنَّ قَوْمَ الْفَخْرِ بِآبَائِهِمْ وَقَدْ صَارُوا فَحْمًا فِي جَهَنَّمَ، أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَعْلَانِ (الجعارين) التي تدفع بآنافها القذر". والقرآن الكريم يدين الفخر إدامة منكرا في آيات عديدة، كقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وقد تحقق مثلنا الأعلى القرآني هذا في الواقع العيني المشهود، وتمثل (بوضوح باهر عبر تاريخنا كله) في شخصيتنا الإسلامية. وهو الذي رفع بلالاً العبد الحبشي فوق أبي سفيان بن حرب "القرشي"، سيد كنانة وزعيم قريش، لأنه كان الأتقى، ولأنه كان الأسبق إلى الإسلام. ولا يزال المسلمون إلى اليوم يقدرون الأتقياء، العاملين المجاهدين، بصرف النظر عن أحسابهم وأنسابهم وأصولهم العرقية. وهذه هي الصفة العامة الحقيقية لشعوب هذه المنطقة. بعكس الشعوب الأوروبية العنصرية التي تؤمن باستعلاء الرجل الأبيض والجنس الآري، على سائر خلق الله، وبعكس العنجهية الصهيونية العنصرية. وكل بحث موضوعي محايد لا بد أن ينتهي بنا إلى تأكيد هذه الحقيقة المناقضة لمزاعم الدكتور فؤاد. فهو يقلب الحقائق رأساً على عقب استناداً إلى ملاحظة عارضة، أو رذيلة شائعة، لهدف شخصي مبيت عنده!

واستناداً إلى هذا الباطل يبني أستاذ الفلسفة "آراءه النقدية". فيزعم أننا نتخذ من السلف - أو الأصل والحسب - صورة البديل الخيالي عن الحاضر، أو العزاء عما نحن فيه من تخلف. (٢)

(١)، (٢) آراء نقدية: ص ١٧٠ .

فالثقافة التى تتصدى لنقيصة التفاخر بالأصل والحسب بوصفها معصية لله - عز وجل -، وتدينها فى كل لحظة تطل فيها برأسها، هى الجديرة بالإدانة عند هذا "الناقد"، وهى التى تعلم أبناءها التفاخر بأصولهم وأحسابهم، ونسبهم بديلاً عن تخلفهم الراهن!

إن الدكتور فؤاد يتعمد إساءة فهم الموقف الإسلامى لمجرد التشنيع. فهو يفهم الاعتزاز بتاريخنا الإسلامى ومثله العليا على أنه تفاخر بالأصل والحسب! وهو يفزع فزعاً شديداً من ذكر أبى بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. إنه يريدنا أن ننسى تاريخنا ونهيل عليه التراب. والدكتور فؤاد بالذات يقرر دون وجل أن الرفاق الحمر فى كوبا والصين أقرب إلينا من أبى بكر وعمر وعثمان وعلي! فإذا أبينا عليه ذلك، قذفنا "بآرائه النقدية" التى هى مجرد أباطيل بناها فوق أباطيل.

أتمودج للحوار مع فؤاد زكريا:

وفيما يلى أتمودج للحوار الذى يفترض فيه أن يكون علمياً، لأنه يناقش مسائل علمية. لكن الدكتور فؤاد - كعادته -! يقلبه إلى سباب وشتائم واتهامات مخيفة!

ذلك أن دار "قدمى" للنشر والتوزيع فى دمشق اشترت حق الترجمة العربية لكتاب THE INVENTION OF ANCIET ISRAEL أى "اختراع إسرائيل القديمة" لمؤلفه: كيث وايتلام. لكن المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت أصدر ترجمة عربية أخرى للكتاب نفسه. وكان الدكتور فؤاد هو المستشار الثقافى للمجلس، وهو الذى اختار المترجمة الدكتور سحر الهنيدى لإنجاز الترجمة، كما قام بالتعليق عليها.

وكان من الطبيعى أن تعترض "دار قدمى" على الترجمة الكويتية، صيانة لحقوق الملكية الفكرية التى تحميها القوانين والاتفاقات الدولية. وقد وجد السيد (زيد منى) أن من واجبه بيان الأخطاء العديدة فى الترجمة، وفى ملاحظات الدكتور فؤاد عليها، لأنها تحاول: "إضفاء تغطية شرعية علمية لعمل مقصر تماماً". وكان الرجل يتوقع أن يتعامل الدكتور فؤاد مع ملاحظاته النقدية بروح رياضية، وأن ينظر إليها بروح أخوى. لكن الدكتور فؤاد لا يرضى بغير الإطراء والمديح، ولا يقبل أى نقد

مهما كان سنده العلمي، فكتب رداً، احتوى على "كم من المغالطات والاتهامات والتحريضات والتجريبات".

وهذا فى الحقيقة هو منهج الدكتور فؤاد فى الحوار. إنه لا يقبل النقد أو المعارضة، وتأخذه العزة بالإثم، فيضيف السباب والردح البلدى إلى أخطائه العلمية الفادحة!

ماذا كان رده "العلمي" على انتقادات "زياد منى" ؟

قال الدكتور فؤاد إن الكاتب: "أمسك قلمه بإحدى يديه بينما يده الأخرى تتحسس حافظة نقوده"!

وقال إن: "سوء النية كان غالباً على السيد زياد منى عندما كتب مقاله النقدي"!

وقال أيضاً: "إن السيد زياد منى لا يفكر إلا فى مصالحه الشخصية ويطرح جانباً كل اعتبار متعلق بخدمة قضيتنا القومية"!

وقال - أخيراً - إنه يتبين أن المحاولات المستميتة التى يبذلها السيد "زياد منى" للتشويش على هذه الطبعة - الكويتية - ومنع انتشارها، تقف موضوعياً فى الخط نفسه الذى يقف فيه العدو الأكبر للقضية الفلسطينية"!

وهكذا صار الكاتب الفلسطينى "زياد منى" خائناً لوطنه، متحالفاً مع الصهاينة، لأنه تجرأ وبين أخطاء فؤاد زكريا!! وردت "دار قدمى" أحسن رد حين قررت نشر غسيل الدكتور فؤاد على أوسع نطاق بين القراء العرب: "كبطاقة تعريف بالدكتور فؤاد الذى قاده تعاليه الواهى إلى التمسك برذيلة الدفاع عن الغلط"!

ولم تنس اللجوء للقضاء لملاحقة الدكتور فؤاد بتهمة القذف، وملاحقة المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب بالكويت لحفظ حقوقها الفكرية والمادية التى اعتدى عليها بمشورة المستشار الثقافى الدكتور فؤاد زكريا.

حواره مع الإسلاميين!

ولعل من أهم انتقاداته فى حواراته ضد الإسلاميين هو أنهم يؤمنون بأن هناك حقيقة واحدة هم المالكون لها وبأن "كل ما عداها باطل"! والحق أن كلامه هذا تعميم خاطئ وغير علمى. فالثقافة الإسلامية كسائر الثقافات تنطوى على عقائد وشرائع

وقيم أخلاقية وتقاليد خاصة بأعراف وآداب وفتنونا وعلوم، ولا يجوز تبعاً لهذا أن تصدر عليها حكماً واحداً باتاً! فالتوحيد الذي هو جوهر الثقافة الإسلامية حقيقة مطلقة أزلية.. ونحن نؤمن بأن كل ما عدناه باطلاً، الإلحاد والفلسفات اللادينية العلمانية كلها عندنا باطل فنى باطل لأنها تكفر بأن للكون خالقاً. وفقى التشريع: العدل مبدأ أزلي مطلق وكل ما سواه باطل لأن ما سواه ظلم وكل تشريع لا يستغنى إعطاء كل إنسان - مسلم أو غير مسلم - ثمرة جهده هو تشريع باطل.. وفقى الأخلاق: الإيثار مبدأ أزلي مطلق وكل عمل لا يستغنى خير الآخرين لا يستحق صفة "أخلاقية" وعلى الرغم من هذه الحقائق المطلقة لم يمنع الإسلام المسلمين من الاجتهاد فى فهمها وتفسيرها على أنحاء مختلفة، ومن هنا ظهرت الفرق الإسلامية فى العقيدة والمذاهب الفقهية فى المجالات العملية.

وفضلاً عن هذا هناك مجالات واسعة لم تحكمها نصوص من القرآن أو السنة لأنها من الجوانب المتغيرة المتطورة فى حياة الإنسان والحاكم فى تنظيمها هو الصالح (المرسلة).. وقد استفاد المسلمون فى تنظيم هذه المجالات من الجاهليين العرب، ومن الهنود والفرس واليونان، والأوروبيين المعاصرين. والله تعالى يقول: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ والنبي ﷺ يقول: "الحكمة ضللة المؤمن أتى بوجدها فهو آحق الناس بها". هذه الحقائق تبين بجلالة بطلان ادعاء الدكتور فؤاد، فالللمؤمنون يستلمون بأنه لديهم حقائق مطلقة، ويحترفون بأن غيرهم من الأمم لديهم معارف صحيحة وخبرات نافعة، والإسلام يحثهم على قبول الحقائق بصرف النظر عن مصدرها..

وهذا يقودنا إلى المسألة الثانية المهمة وهى زعمه بأن الإسلاميين "مطلقون" والحق أن الصيب فى الدكتور فؤاد لأنه اختار أضعف المذاهب الفلسفية فاعتقه ودفع عنه وروج له، وهو المذهب المادى الماركسى الشيوعى بالذات. ولذلك لم ينجح الدكتور فؤاد فى إقناع أحد به. فالمشقفون قارئوا بين الإلحاد والتوحيد، ولم يكن هناك مجال للتبريد فى نبد المادية الماحدة على الرغم من كل الزخارف التى أحاطت بها، وفقى الاتحاد السوفيتى البائد، بعد ٧٤ سنة من الترويح الإلحاد بكل قوة وبشكل وسيل، لم يعتقه من المسلمين إلا عدد قليل جداً. ولو أعطينا كل وسائل الإعلام والثقافة والتعليم للدكتور فؤاد، لن يكون مصيره أحسن من البلاشفة الشيوعيين!

ومرة أخرى يقودنا الحديث إلى النقطة الثالثة وهى نبوءته بأن الإسلام مهزوم لا محالة أمام الثقافة العلمانية المتفتحة! ولقد سبق أن تنبأ الدكتور فؤاد بانهيار الغرب الرأسمالى المستغل وخلود الجناح المادى الشيوعى! وأحسب أن هذه النبوءة الجديدة سوف تكون كأختها! لأن أكثر المفكرين الغربيين يتوقعون انهيار الثقافة العلمانية الغربية، كما كان الدكتور فؤاد يتوقع زمان! والآن تتعلق آماله بانتصار الرأسمالية! ولعله لا يزال يحلم ببعث الشيوعية! والمهم عنده أن يهزم الإسلام، ربما لاعتقاده بأن الإسلام هو الذى قتل الحبيبة الراحلة!

ويصف الدكتور فؤاد ثقافتنا بأنها "ماضوية" ومرد هذا إلى إيمانه بالنسبية السوفسطائية. ونحن نؤمن بأن هناك حقائق مطلقة كما بينا فى السطور السابقة. والفلسفة المعاصرة نبذت النسبية لأنها خطأ، وأقرت بوجود القيم التى تعلو على الزمان ولا تتقادم بمرور الأيام كالعدل والصدق والوفاء بالعهد. فكلامه خاطئ علمياً وفلسفياً ودينياً. وتلك نكبة فى حق أستاذ مثله!

وهو يتهم الإسلاميين بأنهم لا يعرفون العلمانية ولا يقبلون منها شيئاً. وهذا وهم. فنحن الإسلاميين درسنا العلمانية وأخذنا منها وتركنا. وهو أخذ السوفسطائية المتشككة وأيد فكر "نيتشه" و"اسبينوزا" و"ماركس" ورفض أفلاطون وديكارت وكانط! ونحن نستفيد من المواقف الأساسية لدى "سقراط" و"ديكارت" و"كانط"، بمعاييرنا الإسلامية، ونرفض السفسطة والمادية والإلحاد عند أى مفكر.

ونحن أخيراً نرحب بالإبداع فى العلوم والفنون والآداب التى ترتقى بالإنسان جسماً وروحاً وإحساساً وأخلاقاً ونرفض الانحلال المتدثر بعباءة الإبداع! فكيف يزعم أن كل إبداع عندنا بدعة؟ ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾.

* * *